وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية العلوم الإجتماعية

قسم الفلسفة

مشروع: فلسفة الأنجلوساكسونية

مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة
بعنوان

الأصول التجريبية للبراغماتية
جون ديوي نموذجا

إعداد الطالبة:
عشوش صبرينة

إشراف :
الدكتور: صايم عبد الحكيم

أعضاء لجنة المناقشة

* د. بوكردلة الزواوي	أستاذ تعليم عالي	الرئيس جامعة وهران
* د. صايم عبد الحكيم	أستاذ محاضر أ	المقرر جامعة وهران
* د. بهادي منير	أستاذ محاضر أ	مناقشا جامعة وهران
* د. دراس شهرزاد	أستاذ محاضر أ	مناقشة جامعة وهران
* د. بن جدية محمد	أستاذ محاضر أ	مناقشا جامعة وهران

2012/2011

كلمة شكر وعرفان

الحمد لله عدد ما كان و ما سيكون من غير انتهاء

حمدا يليق بثنائه أزليا بلا بداية، أبديا بلا نهاية،سرمديا لا بداية و لا نهاية

هي سنائم من عطور الشكر و العرفان بالجميل إلى مشرفي و موجهي

الأستاذ الدكتور صايم عبد الحكيم حفظه الله .

شكر خاص خصوصية العطاء إلى الأستاذ نزرق عمر.

إلى كل من قدم لنا يد العون من قريب أو من بعيد شكرا للجميع.

الإهداء

أهدي ثمرة عملي هذا بادئا ببدء :

إلى معلمي الأول و الأخير نبينا الكريم عليه أزكى الصلاة و التسليم.

إلى الشمعتان اللتان أنارتا أمنياتي، إلى أحلى وردتان في بستان حياتي،

إلى وصية الله و رسوله عليه الصلاة و السلام الغاليان

أمي و أبي .

إلى ملاذ أفكاري و منبع أساري ، إلى توءم روحي PMIREU

إلى إخوة الروح قبل الدم كادي ، سعيد

إلى كل من يعرفه و يحب **صبرين** لكم مني كل الحب.

مقدمة

يلاحظ الدارس لتاريخ الفلسفة أنها تتقدم بشكل تراكمي وعمودي، فالحقيقة الفلسفية تتميز باتساع افقها وعدم اتخاذها خطا عموديا في البحث بخلاف العلوم الأخرى، ولعل هذا ما تثبته تاريخية العلم، لكن لو تأملنا من زاوية فلسفية لوجدنا الفلسفة كيان خطوطه عشوائية وميادينه و مصطلحاته شاسعة، فهي لا تبني حقائق بل تخمينات غالبا ما تصبح عقيدة وحقيقة لأصحابها ومتبنيها، وهذا ما يعبر عنه بالمذهب الفلسفي.

والفيلسوف دائم التأكيد على دوره الفعال ومساهمته الأكيدة في إصلاح مجتمعه من خلال مذهبه أو منهجه إن صح التعبير، ودعوته المتنامية لتحرير الإنسان من كل أشكال التسلط والاستبداد، وملاذه الأول والأخير في ذلك هو العقل والحوار والعمل وفقا لآلية دينامية هادفة خاصة وجملة التطورات الحاصلة على جميع الأصعدة، لتصبح الفلسفة كخطاب معرفي يتجه أساسا لاستقصاء الإنسان ومحيطه من خلال اكتسابه المعرفة المساعدة على حل إلتباساته وإشكالاته ولهذا يكون الفيلسوف قد أدرك مهمته على أكمل وجه .

وفق هذا السياق يقدم الفيلسوف البراغماتي نفسه اليوم على أنه الجديد بتلك المهمة، خاصة وأن البراغماتية كحالة بحث متفردة لعبت دورا حساما وخطيرا في تاريخ الفلسفة عامة والفلسفة الانجلوساكسونية خاصة، لا لكونها فلسفة أقوى دولة عالمية، بل لأنها فلسفة الإنسان و واقعه .

فالبراغماتية استنطاق لواقع ملموس تجمعت فيها قوى بعضها جاذب و بعضها صاد، وحركة لم تظهر بناءا على اهتمام نظري بحت، بقدر ما ظهرت من خلال العلاقة المباشرة بالحياة ذاتها ونتائجها بالنسبة للوجود الإنساني .

كما تعد البراغماتية حلقة جديدة تضاف بشكل حفري إلى اهتمامات فلسفية هادفة داخل بنية الامتداد الفكري الفلسفي المتماشي وطبيعة الفلسفة التراكمية التي تستحيل في نهاية المطاف إلى إبداع يتأسس في غالب الأحيان على التصديق أو الضجر أو التعديل في صورة الجديد، خاصة وأن البراغماتي لا يكتفي بالعقل فقط والتفاني في سبيل مثل عليا وغامضة، بل هو أكثر من ذلك مشارك فعال في صنع الحدث والحقيقة والتوجه نحو المستقبل .

والواقع أن الفرد غالبا ما يحوز على الرغبة في التطلع المعرفي، خاصة وأن المرغوب فيه تيار معرفي بهذا الحجم، له من الجاذبية و التأثير والجدة ما يحرك الرغبة المعرفية لاسيما وان كان إسهاما فلسفيا بكل متطلبات الفاعلية والفرادة والتغيير عبر الإنتاج المعرفي على مستوى الموضوع والمنهج باتساع الفضاءات وتعدد اللغات.

وهكذا تظهر آلية الامتداد الفكري الفلسفي داخل رزنامة العمل التجديدي خاصة وأن البراغماتية فلسفة تؤمن بالتغيير والتقدم والتجديد، وفي المقابل لا تهمش السابق خاصة في منحاه الايجابي .

ومن هنا جاء الاهتمام بالفلسفة التجريبية خاصة الانجليزية منها كحلقة سابقة على الفكر البراغماتي، في محاولة تقصي تاريخية لكل من البراغماتية والتجريبية داخل الحيز الابستمولوجي .

وإستجابة للعمل الأكاديمي الذي يتماهى والسعي الحثيث للاتسام بالموضوعية تنطلق إشكالية البحث من التأصيل النظري عامة والتجريبي خاصة للفلسفة البراغماتية والتي تعود إلى الفلسفة الأوربية ككل والفلسفة التجريبية على وجه الخصوص وعليه :
هل براغماتية جون ديوي واصلت النزعة التجريبية الأنجلوساكسونية ؟ و هل تميزت تجريبية جون ديوي عن التجريبيات التقليدية ؟ و ما قيمتها ؟

و لتحليل الإشكالية السابقة كان لابد من طرح مجموعة من التساؤلات والمضامين التفسيرية تتجه إلى إستيعاب التصور العام وبالتالي : ما التأصيل التاريخي لكل من البراغماتية والتجريبية ؟ وما موقع التجريبية من تاريخ الفلسفة ؟ وهل يمكن الحديث عن مرجعية تجريبية للبراغماتية ؟ وبتعبير آخر هل كانت المدرسة التجريبية مدرسة للبراغماتيين، وإن كان الأمر كذلك فما مظاهر التأثر عندهم (جون ديوي)؟ وهل البراغماتية امتداد للتجريبية أم تجاوز وطرح للجدة ؟ وبالتالي إلى أي مدى يمكن الحديث عن البراغماتية بعيدا عن التجريبية في ظل وجود مرجعيات أخرى من جهة والاستقلالية الفكرية من جهة أخرى ؟

وكنتيجة لتبريرات ومقتضيات منهجية تم ترتيب البحث وتوزيع عناصره على الفصول والمباحث التالية : الفصل الأول خصصناه لدراسة الفلسفة التجريبية وتاريخ

الفلسفة، لأن الفلسفة التجريبية تمثل الركيزة العامة للبحث بما فيها من خلفيات وتقاطعات مع البراغماتية تتمظهر كدعائم منهجية ومعرفية، ولذلك كان لابد من التطرق إلى مفهوم التجريبية والبراغماتية ومدى فاعلية هذا المفهوم عبر التاريخ الفلسفي .

وبغرض التأصيل التاريخي والتماشي والخط الكرونولوجي العام داخل البنية الفلسفية كان المبحث الثاني بعنوان الأسس الفلسفية للتجريبية في محاولة لاستقصاء تاريخية التجريبية وفقا لأسس فلسفية مع تقفي مراحل تطورها ومعها بذلك ضمنيا البراغماتية .

أما الفصل الثاني والمعنون بالتجريبية الانجليزية، فقد عرضنا فيه التصور العام للتجريبية مع الانجليز باعتبار أن التجريبية تمثل الطرح التجريبي الأصيل ولذلك قمنا بضبط هذا التصور عبر مرحلتين الأولى التجريبية الانجليزية الكلاسيكية بأهم أعلامها خاصة فرنسيس بيكن وجون لوك وهيوم كمبحث أول، ولاستكمال مسار الخط التجريبي الانجليزي كان المبحث الثاني التجريبية الانجليزية المحدثة مع جون ستوارت مل وبنتام .

وفي الفصل الثالث و الأخير قمنا بعرض وتحليل وإبراز أهم المسائل التي تعبر عن التداخل التجريبي البراغماتي خاصة مع جون ديوي ولذلك أخذ عنوان تجريبية جون ديوي ودورها البراغماتي .

وقد تم التطرق في المبحث الأول من هذا الفصل إلى المسار الحياتي والفكري لجون ديوي، كما قمنا بتناول الفضاء البراغماتي قبل جون ديوي من خلال التركيز على جيل المؤسسين من جهة والتأثير البيئي على جون ديوي وفكره التجريبي البراغماتي من جهة ثانية .

في حين خصصنا المبحث الثاني- الذي حمل عنوان المرجعية التجريبية لجون ديوي - لدراسة المرجعية التجريبية في الفكر الديوي، وأهم نقاط تقاطع هذا الفكر والفكر التجريبي خاصة الانجليزي، في محاولة لاستنباط أهم التداخلات على مستوى الامتداد الفلسفي العام .

وفي تصور مقابل وفي سياق آخر قمنا بالتركيز على أهم أعمال جون ديوي وآلية التجديد فيها ليأخذ المبحث الثالث العنونة التالية : ديوي وفكره التنويري الجديد محاولين بذلك تسليط الضوء على أهم نقاط الاستقلالية والتجاوز في الطرح الديوي بعيدا عن التجريبية وأقرب منه إلى البراغماتية .

ولذلك ونتيجة لتشعب فلسفة ديوي واتساع نطاقها ارتأينا التركيز على أهم مباحث هاته الفلسفة، وهم بوادر الجدة فيها من خلال الخبرة ومفهومها الحيوي، ومبحثي التربية والديمقراطية، مع ظهور التجاوز في شكل نقد للتجريبية في مقابل مرجعيات أخرى مثل الداروينية والتطورية .

كما بدأنا بحثنا بمقدمة شكلت البوابة الرئيسية في الدخول إلى الموضوع وختمناه بخاتمة حاولنا من خلالها بلورة أهم النتائج التي توصلنا إليها من جراء البحث.

ولمعالجة الإشكالية العامة والسير والإطار الهيكلي للبحث، كان المنهج المتبع والمتماشي وطبيعة الموضوع، المنهج التحليلي، الذي يتأسس على تجزيء وتفكيك المعطيات العامة من خلال النصوص الفلسفية الأساسية، فكانت قراءتنا تحليلية زيادة على استعمال منهج المقارنة والنقد وذلك بعرض أفكار معينة ومحاولة مقارنتها بأخرى بغرض إبراز حالات الاتفاق والاختلاف ومن ثم فتح باب التجاوز .

وبخصوص الدراسات السابقة فإن موضوع البحث في تصوره العام لا يطرح أي دراسة سابقة، لكن لوعممنا التصور من منطلق براغماتي وتحديدا عند جون ديوي لوجدنا أهم دراسة كانت لمحمد جديدي في كتابه فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجا "

وكأي بحث واجهتنا مجموعة من الصعوبات- زيادة على عناء البحث ككل – راجعة بالدرجة الأولى إلى طبيعة الموضوع وانتمائه للمجال الأمريكي أو الأوروبي الذي لطالما يختلف عن مجتمعاتنا العربية، وبالتالي خصوصية المصطلحات البراغماتية ضف إلى ذلك الترجمات العربية غير الدقيقة، وكذا من بين أهم الصعوبات شساعة الموضوع واتساع نطاق البحث فيه .

لكن لماذا البراغماتية، ولماذا التجريبية كمرجعية وأصل تحديدا ؟ وعليه ترجع أسباب اختيار الموضوع إلى ذاتية وموضوعية، ذاتيا هو الحاجة إلى فهم النزعة

البراغماتية فهما صحيحا يتماشى وحقيقة البراغماتية كما وضعها البراغماتيين وبالتالي آن الأوان لفهم حقيقة هذا التوجه، أما موضوعيا فإن كل من البراغماتية والتجريبية لا تزال فاعلة في الفكر والواقع، وهي الفاعلية التي نأمل أن تنتقل إلى العالم العربي والإسلامي خاصة وأن البراغماتية فلسفة النجاح الأمريكي، والتجريبية أداة التقدم العلمي الأوربي، بالإضافة إلى واقعية الموضوع وأهميته في الفكر الانجلوساكسوني .

وكأهم قسم في أي بحث هو الغاية منه والغاية والأمل من هذه المذكرة أن تساهم في فتح بعض الآفاق أمام الجزائر وأمام العالم العربي الإسلامي المعاصر لاستلام هذه الفلسفة وهذا المنهج مع ديوي تحديدا، والعمل به نحو التقدم المنشود.

الفصل الأول: الفلسفة التجريبية و تاريخ الفلسفة

المبحث الأول: التجريبية و البراغماتية التاريخ و المفهوم

المبحث الثاني: الأسس الفلسفية للتجريبية

الفلسفة التجريبية وتاريخ الفلسفة

تعرف الفلسفة بوصفها شكل من أشكال التعبير الإنساني، تأرجحا وتضاربا في الآراء بخصوص ما ينبغي أن تؤديه من وظيفة بحسب تصور كل تيار أو مذهب فلسفي لها، فمنذ بداية التفكير الفلسفي تعددت الآراء واختلفت حول الدورالمنوط بالفلسفة، وحتى تتعادل كفة الميزان مع نظريات الفهم المجرد التي لطالما عبرت عن المنظور العام للفلسفة، دعت الحاجة إلى فلسفته تخاطب الواقع في مقابل المجرد.

فلسفة المضامين العينية حتى تكون قادرة على معرفة موضوعات الوعي على نحو ماهي عليه في تحديدها الداخلي، و بوصفها وحدة من خصائص متميزة، إنها الفلسفة التجريبية Epirical philosophy التي أقلعت عن البحث عن الحقيقة داخل الفكر ذاته واتجهت تلتمسها من التجربة في الحاضر الماثل أمامها الداخلي والخارجي لكن وبالرجوع إلى المسار التاريخي للفلسفة – بكل تجلياته – هل عبّر هذا المسار عن تلك التجريبية؟ أو بمعنى آخر ما موقع الفلسفة التجريبية من تاريخ الفلسفة؟

I- التجريبية والبراغماتية (المفهوم والتاريخ)

إن الخاصية الفلسفية في طيات التحليل الفلسفي، لطالما تستوجب، بل وتحتم علينا التعامل مع المفاهيم، وأي تعامل غير ذلك الذي يخاطب الحذر كما يستدعي التوضيح في ظل الكلمات المفتاحية، فالمسألة لا تختزل إلى مجرد "تلاعب بالكلمات" أو تقديم "شرح خال الوفاض"، إنها فلسفة دقيقة دقة مفاهيمها تأخذ بعين الإعتبار خصوصية المفهوم في إحالته لفترات حضارية وتاريخية معينة.

خاصة وأن الطرح الأكاديمي يتماهى والسعي الحثيث للإتسام بالموضوعية ولما كانت التجريبية والبراغماتية مفاهيم البحث الرئيسية، استوجبت الحاجة المنهجية ضرورة الضبط المفاهيمي، وفقا لسياق أفقي يحيل إلى الحضور الواعي لهذين المفهومين في البنية العامة للموضوع، بحسب تعريفهما من طرف المؤسسين والمتبنيين إما بشكل قصدي أو من خلال جملة الاستنتاجات والمداخلات التي لطالما أفرزتها المعالجة الفلسفية .

أولا : التجريبية l'empirisme :

تشير التجريبية من زاوية الاشتقاق اللغوي إلى تجريب ، وهو لفظ الأفرنجي "Empirical" المشتق من اليونانية " empirikos" وتعني من يعلم أو يظن أنه يعلم بالتجربة، أو من يسعى في الإفادة من التجربة ولكن الاهتمام بالدقة العلمية [1].

والتجريبية من الفعل جرّب، يُجرّب، جرّب، تجريبا وتجربة الشيء تعني اختباره [2].

والتجربة مأخوذة من جرّب وجرب الرجل، تجربة،اختبره ومجرّب[بكسر الراء]:قد عرف الأمور وجرّبها، والمجرب الذي قد جرب في الأمور،وعرف ما عنده[1].

(1) وهيبة مراد، المعجم الفلسفي(مصطلحات الفلسفة)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، د(ط) 1998،ص:170.
(2) بن الحاج يحي وآخرون، القاموس المدرسي، دار تلانتيقية للنشر والتوزيع، الجزائر، د(ط)، د(ت)،ص:155.

والتجربة Expérience لغة: تعني الاختبار، و تجربي Expérimentation هو الإكثار منه ويدل على أن التفعيل هو للمبالغة والتكرير [2].

والتجربة من خبر، خبرة، وخبري، تجربي، أمبريقي، كتابة جديدة حلت محل القديمة وفقا لملاحظة لا شبيهة، وهي جديدة بما فيها من مقترحات.

وخبرية تجريبية مذهب الخبرة والتجربة Empirisme وهوالإسم النوعي لكل المذاهب الفلسفية التي تنفي وجود بدائه ومصدرات بوصفها مبادئ معرفية متميزة منطقيا من الاختبار حيث لن يعد الارتباط مشروعا ما لم يكن من الممكن مشاهدته في الظواهر [3].

و الأمبيري أعم من التجريبي لأنه يشمل كل ماهو معطى عن طريق الحساسية فحين أن التجربي مقتصر على التجربة أي على ماهو صادق موضوعا.

التجربة بمعنى عام خبرة يكتسبها الإنسان عمليا أو نظريا وبمعنى خاص تعني التداخل في مجرى الظواهر للكشف عن الفروض أو التحقق من صحته، وهي جزء من المنهج التجريبي عامة في نظرية المعرفة هي كل معرفة تستمد من الحس وتقابل الفطري أو العقلي، أما في مناهج البحث تعتمد على الملاحظة والتجربة المباشرة وتقابل النظري أو الاستبطاني[4] .

والمنهج التجريبي عامة يفترض ظروفا تجريبية دقيقة يحددها العالم وفق الفكرة التي يريد إبرازها أو التحقق من صدقها في إطارات محددة من خطواته الرئيسية والمتمثلة في الملاحظة والتصنيف والفرض والتجريب والتحقق[5].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر، د(ط)، 1981 ص:1090.

(2) وهيبة مراد، المرجع نفسه، ص:170.

(3) لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية ، ج2، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت –باريس،ط(1) 1996، ص:314.

(4) مدكور ابراهيم، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون الطباعة والنشر، القاهرة، د(ط)، 1983، ص:38.

(5) فتحي عبد الله محمد، معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط(1) 2003، ص:351.

ولعل الحديث عن التجريبية أو التجربة من الناحية الاشتقاقية يستدعي الحديث عن الخبرة لما بينهما من تداخل على مستوى الاشتقاقات اللغوية.

الخبرة :Expérience

تأتي الخبرة في اللغة العربية مشتقة من "خبر" والخبير من أسماء الله عز وجل تعني العالم بما كان وما يكون، وخبرت بالأمر أي علمته وقوله تعالى " فاسأل خبيرا" أي اسأل عنه خبيرا يخبر والخبر والخبرة كلمة تعني العلم بالشيء[1].

الخبرة: الاختبار وخبرت الرجل .اخبره خبيرا وخبرة والخبير: العالم والخبير الذي يخبر الشيء يعلمه[2].

و بالتالي فالخبرة تعني معرفة الشيء أو العلم بالشيء ومعرفته على حقيقته وعليه فالخبرة نتاج للعلم والمعرفة عن طريق الإختبار أو التجريب.

عموما تعني التجريبية من الوجهة النفسية العلمية : التعارض مع المبادئ العقلانية الفطرية التي تقول بوجود مبادئ معرفية بينة لدى الفرد، ومن وجهة علم العرفان فهي (التجريبية) العقيدة القائلة سواء اعترفت أم لم تعترف أي معرفة هاته الأخيرة التي ترتكز إلا على التجربة وحدها فلا تسلم خارجها بغير تعريفات أو فرضيات عشوائية[3].

والتجريبية Empirisme**:** مذهب فلسفي ينفي وجود مصادرات بوصفها مبادئ معرفية أساسها الاختبار وهي منافية للمذاهب العقلية القائلة بالمبادئ الفطرية للفرد مثل جون لوك مقابل ديكارت وهي تعبير عن عالم أشياء منفصل عن الذات وهذا باستخدام المناهج الموضوعية على أسس تجريبية وليس على أسس نظرية[4].

(1) ابن منظور، المرجع نفسه، ص:1090.
(2) المرجع نفسه، ص:1091.
(3) لالاند أندريه، المرجع نفسه، ص:342.
(4) عبد المنعم راوية عباس، جون لوك "إمام الفلسفة التجريبية"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت د(ط)، 1996، ص: 69.

لذلك تعد التجريبية من بين الاتجاهات الكبرى في نظرية المعرفة التي ترى أن التجربة هي الأساس في العملية المعرفية وأن العقل صفحة بيضاء مهتمة بربط الأفكار التي تأتيه عن طريق الانطباعات أو الإحساسات أو الإدراك ويمثل هذا الاتجاه لوك، هيوم (التجريبية الإنجليزية)[1].

والتجريبية : اتجاه في المعرفة يرد الفرد إلى التجربة الحسية، وهي مقابلة للنزعة العقلية Rationalisme*، كما أنها فهم جديد في مقابل الفهم المجرد (E)Abstract و(F)Abstrait وهو إسم مفعول من التجريد، ومعنى التجريد أن يعزل الذهن عنصرا من عناصر التصور، فالمجرد هو الصفة أو العلاقة التي عزلت عزلا ذهنيا، و يقابله المشخص أو المحسوس[2].

وتكون التجريبية منهجا أكثر منها مذهبا، ويمكن تحديدها من الناحية الأخلاقية فهي التمثيل الأكمل للنزوع إلى إعادة تكوين الحياة النفسية أو الأخلاقية برمتها بواسطة بعض العناصر البسيطة أو المظنون أنها كذلك وهي إحساس لذة، اهتمام أو استخراج الزائد من الناقص[3].

تعتبر التجريبية اتجاه في نظرية المعرفة يرد المعرفة إلى التجربة الحسية (الأحاسيس والإدراكات الحسية) وتبعا لهذا المدلول نميز بين التجريبية المادية والتجريبية المثالية.

التجريبية المادية تفهم التجربة على أنها حاصلة بتأثير أشياء العالم الخارجي وظواهره على حواس الإنسان، أما التجريبية المثالية فتقتصر فيها التجربة على جملة الأحاسيس والتصورات وتنفي أن يكون العالم الموضوعي مصدرا للتجربة[4] .

(1) بغورة الزواوي، مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، مطبعة دار الهدى، الجزائر، د(ط)، د(ت)، ص:10.
* مذهب فلسفي يرد المعرفة إلى أسس فطرية وهو في مقابل التجريبية أو المادية من ممثليه ديكارت
(2) صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، د(ط)، 1994، ص:346.
(3) لالاند أندريه، المرجع نفسه، ص:342.
(4) سلوم توفيق، المعجم الفلسفي المختصر، دار القلم، موسكو، د(ط)، 1982، ص:108.

التجريبيات والمجربات هي القضايا التي يحتاج إليها العقل في حزم الحكم بها إلى واسطة تكرار المشاهدة، و في اللغة الفرنسية إذا جاءت لفظة التجربة مفردة كان معناها بوجه عام المعرفة المكتسبة من خبرات الحياة، فيقال أن فلانا قد اكتسب خبرة وأنه ذو خبرة، أما إذا جاءت جمعا كان معناها الوقائع التي تكسبنا معرفة الأشياء معرفة تجريبية وإذا تكرر الذكر كان بذلك " تجربة "[1].

في الإطار الفلسفي تلقى التجريبية معناها التام مع الانجليز فيعرفها جون لوك بـ: ارتباط مجموعة من الأفكار في الذهن بشيء واحد أو حامل واحد بمعنى أنه إذا قيلت هذه الصفات فإنها تدل على هذا الشيء فلوك في مقابل المذاهب العقلية ينفي الفطرة ويؤكد على التجريبية وإكتساب المعرفة من خلال الحواس[2].

كما يذهب المثقفون بالبحث العلمي إلى تحديدات معينة للتجربة فتجد "راتوفسكي" يرى أن التجربة هي تجديد لمعالم معينة في مجال شيء خاضع للملاحظة والقياس[3].

و يرى "ريد" أن " التجربة هي ملاحظة نقوم بها تحت شروط ملموسة "[4].

فالتجربة تتم تحت شروط معلومة للباحث، وبتالي فإن الباحث حين يقوم بالتجربة إنما يخضع المواد التي أمامه لظروف معينة ليحصل على نتائج ملموسة وفي هذا الصدد يذهب " كلود برنار" بالتجربة على أنها ملاحظة مستثارة يقصد بها التحقق من صدق فكرة ما[5].

(1) وهيبة مراد، المرجع نفسه، ص:171.
(2) عبد المنعم راوية عباس، المرجع نفسه، ص: 70.
(3) محمد علي ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم، "المنطق الإستقرائي"، دار النهضة العربية، بيروت، د(ط)، 1984 ص:52.
(4)محمد علي ماهر عبد القادر، المرجع نفسه، ص:52.
(5) محمد علي ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم، "المتودولوجيا"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر،د(ط) د(ت)، ص:59.

كما نجد كذلك التجريبية الفاصلة Expérience Criciale : هي تجربة تحسم الخلاف الذي يدور على فرضين متناقضين وتقوم في المنهج الاستقرائي مقام البرهان في المنهج الإستنباطي[1] .

و الاستقراء L´induction : كما يعرفه " قرونو" "طريقة الفكر الذي يواصل طريقه بدلا من التوقف فجأة عند حدود النظر المباشر " ، كما يستعمل ليبنتز الاستقراء كمعادل للمعرفة الاختبارية وعموما هو الانتقال من الجزء إلى الكل داخل المنهج الاستقرائي وبالتالي التجريبي[2].

إن المذهب التجريبي خطاب للعالم الواقعي الفعلي الذي لابد أن يكون حاضرا أمام الإحساس وهو يناقض ما ينبغي أن يكون على أساس أن الفكر الانعكاسي كان عبثا لا معنى له عندما عالج الحاضر الفعلي باحتقار من خلال الإشارة إلى منظر أومشهد في الماوراء [3].

دائما وفي الإطار المفاهيمي للتجريبية نجد " ادنجتون" في تعريفه يقترب من الفكرة الناجحة فيقول بالتجربة الجيدة، والتجريب الجيد يقوم على أساس "اختيار الظواهر الطبيعية في تأليفاتها الممكنة وتسجيل كل العلاقات بين هذه الظروف والنتائج التي توجد لدينا "[4].

إن هذا التعريف للتجريبية هو الذي جعل مضمونها يلتقي إلى حد بعيد مع الفلسفة البراغماتية أو بالأحرى المنهج البراغماتي، والذي سيتضح أكثر من خلال تعريف البراغماتية.

ثانيا:البراغماتية: Pragmatism

(1) وهيبة مراد، المرجع نفسه، ص:343.
(2) لالاند أندريه، المرجع نفسه، ص:343.
(3) إمام عبد الفتاح إمام، موسوعة العلوم، ج2، المكتبة الهيجلية-مكتبة مدبولي، القاهرة، د(ط)، د(ت)، ص:140.
(4) محمد علي ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم، "المنطق الإستقرائي"، ص:55.

تشير البراغماتية إلى برجماتي Pragmatic , Pragmatique وهولفظ ابتدعه موريس بلوندل للدلالة على الفعل من حيث أن الفعل حقيقة لا مثيل لها[1].

وقبل هذا فإن البراغماتية Pragmatisme تشير إلى المصطلح ذي الأصل اليوناني (Pragma) الذي يعني الفعل (Action) بالمعنى الذي يحيل إليه المهارة والنجاعة[2].

وهي مشتقة من الفعل براسو (Prasso) أو براطو (Pratto) أو براتن (Prattein) الذي يعني افعل[3].

والبراغماتية كمذهب فلسفي فإنها تعبر عن نزوع فلسفي عادة ما ينظرإليه بوصفه إنتاجا أمريكيا صرفا يتماشى وسمات الفرد الأمريكي أي كطبع والتقنية وحب العمل[4].

ولعل هذا المفهوم كتمظهر للوعي يتوطن عقول الأفراد لم يحل إلى صفة الحيادية معظم الأحوال بسبب تعدد الت أويل وذلك قي ربطها بالديناميكية والفاعلية وبالتالي النجاح، و بهذا كانت البراغماتية وأكدت على النواحي العلمية في المعرفة واتخذت بذلك الأفكار والقضايا معناها من خلال التطبيق العملي والاستخدام الأمثل لها[5].

و يعتبر شارل سندرس بيرس Charls Sanders Peirs أول من استعمل هذا المصطلح مستعيرا إياه من الفيلسوف الألماني امانويل كانط، و ذلك من خلال مقاله الشهير كيف نجعل أفكارنا واضحة How To Made Our Ideas Clear سنة1879[6].

وقد قفز هذا المصطلح إلى بيرس من جراء دراسته لإيمانويل كانط هذا الأخير الذي ميز في كتابه "ميتافزيقا الأخلاق" بين براغماتيك وبين عملي Practical فعملي

(1) وهيبة مراد، المرجع نفسه، ص:143.
(2) James William ,Pragmatism ,Dover Philosophical Classics, New york ,1(p) ,1995 p.18.
(3)جديدي محمد، فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجا"، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط(1)، 2004، ص:17.
(4) Bleau L.Joseph ,Men and Movements in Américan Philosophy ,Prentice Hall Philosophy Ceries USA , n(p) ,1966 ,p.228.
(5) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر،ط(1)، 2000، ص:70.
(6) لالاند أندريه، المرجع نفسه، ص:1014.

عند كانط ينطبق على القوانين الأخلاقية التي يعدها أولية إما البراغماتيك فينطبق على قواعد الفن والصيغة التي تعتمد على الخبرة وتقبل التجربة[1].

والبراغماتية هي ذلك الطريق الذي يسمح بتوسيع المنهج الذي تستعمله الفلسفة لصالح نظرية المعرفة التي حولت مركز جاذبيتها، لكي تنقله من التصور أو المقصد المثالي إلى العملية الإجرائية الكلية والفاعلية[2].

وبالتالي يظهر التقاطع بين التجريبية والبراغماتية من ناحية المنهج وهذا الأخير الذي يعد أهمية وضرورة لكل بحث ونشاط يقوم به الإنسان، والمنهج في أعم معانيه وسيلة لتحقيق هدف ونشاط يقوم به الإنسان وفق طريقة محدودة لتنظيم هذا النشاط[3].

وبهذا تصبح البراغماتية محاولة لتفسير وتوضيح كل فكرة بتتبع واقتفاء أثر نتائجها العملية كلا على حدة، وفي هذا الصدد يتفق وليم جيمس مع بيرس من خلال مقولته التي أصبحت قاعدة أو مبدأ تعرفه البراغماتية والبراغماتيين، ليس في أمريكا وحسب بل العالم أجمع وذلك في " وجود الشيء يعني كونه نافعا "[4].

إن بيرس من خلال مقاله " كيف نجعل أفكارنا واضحة " يذكر القاعدة الأنسب للتحقق فيقول " إن تصورنا لموضوع ما هو تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر ". وهذا يعني أن علامة الحقيقة أو معيارها العمل المنتج لا الحكم العقلي وبيرس يشير بهذا إلى الذهن ذي الطراز التجريبي فالبراغماتية إذن تجعل العمل وسيط على دور متوسط وبذلك هي أبعد من أن تمجد العمل لذاته، فهي تعمل على ربط التصور بالواقع عن طريق التطبيق في الوجود[5].

(1) الأهواني احمد فؤاد، جون ديوي سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، مصر، ط(2)، 1968،ص:84.
(2) لالاند أندريه، المرجع نفسه، ص:1014.
(3) روزنتال يودين وآخرون، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط(4) 1981، ص:502.
(4) ابراهيم مصطفى ابراهيم، المرجع نفسه، ص:71.
(5) وهيبة مراد، المعجم الفلسفي (مصطلحات الفلسفة)، ص:144.

و البراغماتية داخل السياق الفلسفي لا تحيل إلى نظرية فلسفية مغلقة بالغة التدقيق، إذ أن أفرادها لا يشكلون " حزبا معرفيا بالمعنى الدوغمائي للكلمة، وإنما تيارا فلسفيا ينطلق من فكرة مفادها أن حقيقة الفكرة مرتبطة بنتائجها العملية من منطلق أن أي فكرة لا تؤدي محصولا من الناحية الفاعلية في الواقع لا تستدعي بل ولا تحوز على مبررات وإمكانات البقاء[1].

و تعتبر البراغماتية ركيزة رئيسية وبنية مؤسسة تستجيب لها دراسات فرعية كثيرة، كما يشترك مؤسسوها بيرس، جيمس، ديوي على التوالي في أصول مشتركة منها تلك الاستجابة الجديدة في معيار الصدق المنطقي لعبارة من العبارات مما جعلت معيار الصدق، صدق القول ويصبح هذا الأخير(الصدق) طريقة سير نمشي في الحياة على هداها، وهذا في مدى المطابقة الواقعية وفقا لمبادئ تجريبية[2].

كما كانت البراغماتية عند وليام جيمس بصورة استخدام البراغماتية في مجال الدين في كون أنها تسعى لإعطاء الفعالية لكل نظرياتها بربط كل واحدة بالعمل، وبذلك حدد جيمس معنى البراغماتية من حيث أنها :

1 - مجرد منهج فلسفي يهدف إلى توضيح وتحديد المشكلات وتفسير المعاني من خلال توضيحها وذلك بتتبع نتائجها وآثارها الفعلية فهي فلسفة منهجية بالدرجة الأولى.

2 - من حيث هي طريقة وأسلوب في التوضيح والتحليل لإزالة الشوائب من الأفكار والمعاني عن طريق التحقق.

3 - من حيث هي نظرية وأسلوب في الصدق تتعلق بالمعنى والاعتقاد وذلك بتوضيح وتحليل المعاني والمعتقدات ومعنى الصدق مرتبط بالنجاح العملي[3]

(1) ابراهيم مصطفى ابراهيم، المرجع نفسه، ص:72.
(2) المرجع نفسه ، ص:72.
(3)ابراهيم مصطفى ابراهيم، المرجع نفسه، ص:76.

وبهذا يكون جيمس وكأبرز مؤسسي البراغماتية قد أكد في تعريفه للبراغماتية على مدى صدق الفكرة من خلال ارتباطها بالخبرة والفكرة عنده يجب أن تكون لها قيمة فورية، ونجاح الفكرة مرتبط بالاعتقاد في نجاحها، خاصة وأن البراغماتية هي الفلسفة التي تدعو إلى تقدير الحقائق من خلال قيمتها العملية أو ما يمكن أن تؤديه من فوائد مادية للإنسان

وليس ببعيد عن جيمس نجد جون ديوي يعرف البراغماتية على أنها فلسفة تتجه إلى العمل كما تتأسس على علاقات ديناميكية مركزها الفرد في علاقة تفاعلية دائمة مع غيره (الوسط الاجتماعي) والمحيط (الوسط الطبيعي) [1].

و قد ورد تعريف لديوي في قاموس القرن Certury Dictionary (1990) حيث يقول هي "النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة وموادها إنما تتحدد في حدود الاعتبارات العملية أو الفوضية فليس محل للقول بأن المعرفة تتحدد في حدود الاعتبارات النظرية التامة الدقيقة أو الاعتبارات الفكرية المجردة "[2].

و بهذا تصبح البراغماتية عند جون ديوي تدور حول نتيجة الفعل الداخلة في تكوين صدق القضية، وعموما تعرف البراغماتية على أنها منهج أكثر منها مذهب وهي القاعدة أو العادة المعملية للذهن، كونها فلسفة تسعى إلى تحقيق التعايش السلمي فوق كل شيء عن طريق الوفاق من خلال نجاح ضمن النسبية، كما فيها إشارة إلى الاقتراب من الملموس حينما تتحدث عن الإنسان كحيوي ماهر أو عن الشيء من خلال نفعه ونجاعه[3] .

ويمكن استنتاج من خلال ما تم تقديمه من تعريفات حول البراغماتية أهم خصائص هاته الفلسفة التي شغلت مساحه هامة في عالم الأفكار والواقع.

(1) طرابشي جورج، معجم الفلسفة، دار الطليعة، بيروت، ط(2)، 1977.ص:312.
(2) ابراهيم مصطفى ابراهيم، المرجع نفسه، ص:77.
(3) La Land André, Vocabulaire Technique et critique de la philosophie, p.u.f, 16(e) 1988 p: 806.

1- أفضلية الفعل على النظر من منطلق مبدأ بيرس أن تصورنا للموضوع مرتبط أساسا بنتائجه العملية (الآثار العملية).

2- التأكيد على دور الاعتقاد في المعرفة.

3- إبراز الطبيعة الاجتماعية للفرد.

4- النظر إلى الفكرة كوسيلة أو مخطط للتطبيق.

5- الإيمان بالتقدم والعمل للمستقبل داخل سياق فردي واجتماعي.

6- النظر إلى الحقيقة في صيرورتها مع إمكانية تغيرها بعيدا عن الرتابة والثبات.

7-التأكيد على الخبرة كمجال حيوي لصدق الأفكار(جيمس، ديوي). كما توجد مجموعة من الخصائص ستتضح أكثر من خلال التحليل العام الذي يوضح من خلال الفصل الثالث (فصل تحليل الموضوع).

II- الأسس الفلسفية للتجريبية:

كل تجريبية تحول بشكل ما إلى براغماتية أو فاعلية، انطلاقا من المفهوم لكل من التجريبية والبراغماتية، يتبين أن الإنسان كان منذ تواجده فوق الأرض تجريبيا بشكل ما وبراغماتيا أي عمليا بشكل ما كذلك.

فقد شكلت التجريبية منذ البداية للإنسان الطريق الأول للتفاعل مع الطبيعة وذلك لحماية حياته ووحدة استمراريتها، ولعل هذا الأمر أشبه بالحاجة البيولوجية فينا.

استعمل الإنسان ومن خلال أدوات بسيطة أولى وأولية- لضمان حياته- أشكالا مختلفة ومتطورة يمكن أن نسميها تجربة بغاية عملية براغماتية حتى ولو بصورة ضمنية، وذلك في السعي وراء الفعالية باستمرار لتطوير الحياة وتحقيق أقصى ما يمكن من الراحة والسعادة له ولذويه.

هكذا عرفت كل الشعوب التجريبية، كما عرفت حوارات مختلفة ذات روح براغماتية من الشعوب الشرقية وإلى الولايات المتحدة الأمريكية وفقا لأسس فلسفية.

أولا: ما قبل الفلسفة:

لقد شهدت البيئة الشرقية أشكالا مختلفة من التجريبية داخل الممارسة الفعلية فعرفت بعض العلوم العملية النافعة، كما سادت فيها بعض الآراء الدينية السامية الحاملة للروح النفعية من خلال الممارسة الدينية في صورتها التجريبية وهذا ما أكدته بلاد فارس من خلال الديانة الزردشتية القائمة على مبدأ الثنائية الإلهية، فالعالم يسوده إلهان، إله الخير "أهريمان" وإله الشر "أهرومازدا"، لكن الذي يهم في هذه الطقوس الدينية ارتباطها بالحياة والممارسة الخيرة لغرض إرضاء إله الخير عن طريق الاجتهاد والعمل وهنا تظهر التجريبية والبراغماتية[1].

كما عرفت بلاد الهند مذهب الحلول الصوفي إلى جانب التناسخ خاصة هذا الأخير الذي فيه إشارة للتجريب التطبيقي، وقد توصل المصريون القدامى في ميدان العلوم والميكانيكا والكيمياء*(العلوم التجريبية اليوم) إلى أرفع ما يمكن أن يتوصل إليه العقل البشري المتطور،فالفكرة القائلة بأن الماء هو أصل جميع الأشياء والموجودات أو أول عناصر الطبيعة (طاليس) هي فكرة قديمة وجدت عند المصريين القدامى والبابليين والهنود في صورها البسيطة[2].

وإذا كان المصريون لم يؤلفوا الكتب العلمية القديمة في الهندسة كما فعل اليونانيون، فانه لا شك في أنهم عرفوا هذا العلم قبل اليونانيين وبرعوا في استخدام نتائجه فضلا عن الاهتمام بالجانب النظري من الهندسة، فقد عنوا بالدرجة الأولى بالجانب العملي أو التطبيقي منها(التجريبي والبراغماتي) فكان نتاج ذلك ولا يزال بناء الأهرامات العظيمة(إحدى عجائب الدنيا السبع) والتي تعد خير دليل على عظمتهم في هذا الحقل[3]

كما استخدم المصريون علم الكيمياء في عملية حفظ موتاهم (التحنيط) هذه العملية التي لا تزال حتى اليوم سرا ولغزا يحير العلماء وهكذا يظهر مرة أخرى الطابع العملي

(1) فضل الله مهدي، بدايات التفلسف الإنساني" الفلسفة ظهرت في الشرق"، دار الطليعة، بيروت، ط(1)، 1994 ص:40.

* لفظ مشتق من الكلمة المصرية القديمة كيمي ومعناها الأرض السوداء التي كانت رملية صفراء في البداية فحولها النيل إلى خصبة سوداء.

(2) ف . ديكاوف كوفالين، الحضارات القديمة، ج 2، تر: نسيم واكيم البازحي، منشورات دار علاء الدين، دمشق ط(1) ، 2000، ص: 374.

(3) فضل الله مهدي، المرجع نفسه، ص:41.

والتجريبي في أحضان البيئة الشرقية التي عرفت تقدما هاما في مجالات العلوم كما عرفت معها ممارسات عملية لا تزال تذكر حتى اليوم سواء في مجال الكيمياء أو الفلك هذا الأخير الذي عرف على يد البابليين والكلدانيين تقدما واضحا وذلك في تقسيمهم لليوم إلى أربع وعشرون ساعة وتنبؤهم الدقيق لكسوف الشمس وخسوف القمر واستفادة اليونان في هذا العلم منهم[1].

و هكذا دعت الحاجة في سبيل التكيف مع الحياة كل من مصر وبلاد ما بين النهرين إلى الممارسة العملية والتجريبية، حتى ولو لم ترق تلك الممارسة إلى الطابع الفلسفي لكنها واصلت بحثها في فضاء الطبيعة محاولة بذلك استحداث مختلف الوسائل وفقا لمسار تجريبي بسيط لأجل التأقلم والبقاء ولعل هذا في حد ذاته ممارسة فلسفية بصورة تجريبية.

فكان بذلك الإلمام بالمعارف الفلكية لازما من أجل الوصول إلى التنبؤ الدقيق بفيضان النيل بالاضافة إلى تطبيق الحكم الإداري للكتابة بالصور،كما استعملت بلاد مابين النهرين الكتابة المسمارية كما مارست من الناحية الدينية والتي حملت في طياتها متطلبات براغماتية (السعادة) السحر والتنجيم عن طريق تسجيل حركة النجوم [2] .

و في هذا الصدد نجد مجموعة من مفكرين "مارسيل غرانه" M. Granet في كتابه "الفكر الصيني" يرد صورة الحقيقة لدى المذاهب الصينية المختلفة إلى رسوم اجتماعية سائدة أو مشتركة لدى الجماعة، بمعنى أن الحقيقة لدى هذه المذاهب لا تنبثق من التأمل النظري أو تستفاد من العقل وإنما تستفاد من جماع الآراء السائدة في المجتمع أو لدى الجماعة دون إعمال النظر فيها[3] .

و يرى "بول ماسون أورسيل" Ourcel كما يرى "مارسيل غرانه"، أن الفلسفة الهندية كناية عن مذهب عملي في الحياة أوطريقة عيش خاصة(الخيرة في البراغماتية)

(1) المرجع نفسه، ص42.
(2) راسل برتراند، حكمة الغرب، ج 1، تر: فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، الكويت، د(ط) ، 1983،العدد:72،ص:22.
(3) فضل الله مهدي ، المرجع نفسه، ص:42.

ذلك أن الشـيء الوحيد الجديد باعتبـار لدى الفلاسفة الهنود، هو الفكرة التي تؤدي إلى غاية مفيدة أو نتيجة نافعة، فالفلسفة الهندية لا تأبه ولا تكترث مطلقا بالمعرفة العقلية أو النظرية لأجل المعرفة- كما هو الحال في الفلسفة اليونانية- وإنما بما يمكن أن تؤدي إليه هذه المعرفة من فوائد مادية وغايات عملية(تفكير براغماتي)[1].

لذا فمذهب "اليوغا" الذي يعبر عن طبيعة الفلسفة الهندية، يعلم عن طريق التجربة والممارسة، كيف يمكن أن تنمى سلطة الروح على الجسد وكونفوشيوس (551،479ق-م)Confucius لا يهتم على الإطلاق في البحث في الماورائيات وإنما يولي جل اهتمامه بالسياسة والأخلاق وفيما ينبغي أن تكون عليه هذه حتى يتمكن الإنسان من العيش بسعادة في هذا العالم[2].

و لذلك كان الربط بين الأخلاق والسياسة محورا أساسيا عنده،حيث أن الأخلاق هي نظره المبدأ الأساسي لأي نظام اجتماعي سياسي مستقر، إذ لا يستطيع أي حاكم أن يقيم نظاما اجتماعيا كاملا إلا إذا عمل أولا على الارتقاء بأخلاق الأفراد (غاية براغماتية وفقا لمبادئ تجريبية) فإذا استطاع كل فرد أن يسيطر على حياته النفسية أو يحقق الانسجام والتوازن الداخلي أدى ذلك بالضرورة إلى انسجام المجتمع ككل واطمئنانه ومن ثم أمكن أن يعيش أهله حياة اجتماعية مستقرة[3].

وقد أسهم المصريون في الفكر الاجتماعي الأخلاقي بتلك التعاليم العملية الواقعية ولم تتوقف مظاهر التفكير عندهم على النواحي السياسية والاجتماعية والمعمارية والفنية فحسب بل امتدت عن طريق الممارسة والتجريب إلى اللغة والأدب عن طريق ثورة اخناتون من خلال النهضة الأدبية[4].

كما اتسمت الأخلاق المصرية بمجموعة القواعد العملية التي تعبر عن الواقع الإنساني وتلحظه بصورة تفصيلية ودقيقة، ومن مجموعات القواعد والنصائح الخلقية

(1) المرجع نفسه، ص:43.
(2) فضل الله مهدي، المرجع نفسه، ص:44.
(3) النشار مصطفى، فلاسفة أيقظوا العالم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط(3)، 1998،ص:64.
(4) المرجع نفسه، ص:44.

العملية المصرية مجموعة الحكيم المفكر "آني" التي كتبها إلى ابنه "خنس حوتب" والتي يوصيه بالصمت وعدم تناول الآخرين بالنقد، لأن السلامة والسعادة كثيرا ما تكونان بصمت اللسان[1].

و بهذا تظهر تلك الممارسات العملية التجريبية ذات الطابع البراغماتي في الفكر الشرقي خاصة فيما تعلق فيها بمجال العلوم، وكذا مجال الأخلاق التي كانت غايتها بالدرجة الأولى براغماتية وفقا لممارسة عملية(العبادات) ومساعي التربية التي ظهرت مع كونفوشيوص وزرادتشت، وعموما حملت البيئة الشرقية متطلبات عملية وتجريبية وفقا لغايات براغماتية سواء فيما تعلق فيها بالحياة المباشرة(الهند) أو بالموت (مصر).

ثانيا: عند اليونان:

إن الحديث عن التجريبية داخل الفلسفة اليونانية أمر وارد بل ومؤكد ولعل هذا راجع بالدرجة الأولى إلى تلك الانجازات الحية خاصة في العلم الطبيعي خاصة عند الإغريق القدامى الذين عرفوا باسم الطبيعيين لاهتمامهم بالعالم الخارجي ومحاولة تفسيره عن طريق العنصر الطبيعي.

فقد ذهب "طاليس" Thales المالطي في قوله" إن الأشياء جميعا جاءت من الماء" إلى أن الماء أصل كل شيء – وعلى هذا النحو بدأت الفلسفة والعلم- بما فيه من حاجة ضرورية وماسة وهذا من خلال التجربة وهي أن الماء يتحول بفعل الحرارة إلى بخار ثم يعود ليتساقط على هيئة مطر، وهذا ليس من ضرب الخيال، فقد تبين في عصرنا أن الهيدروجين الذي هو العنصر المولد للماء هو العنصر الكيميائي الذي يمكن أن تخلق جميع العناصر الأخرى منه[2].

(1) فضل الله مهدي، المرجع نفسه، ص:99.
(2) راسل برتراند، حكمة الغرب، ج1، ص:30.

كما كانت لطاليس إسهامات حول كسوف الشمس، حيث تمكن من تطبيق (التجريب) القاعدة العملية التي كان يستخدمها المصريون القدماء في قياس ارتفاع الهرم ليهتدي بواسطتها إلى المسافة التي تبعد بها السفن في البحر ومسافة الأشياء الأخرى التي يستحيل الوصول إليها وهكذا كانت لديه فكرة عن إمكان تطبيق القواعد الهندسية على نطاق عام[1].

كما ذهب الفيلسوف المالطي "انكسيمندر" نفس مذهب طاليس فقد كان مخترعا ومتمرسا في المسائل العلمية العملية فهو أول راسم للخرائط وهذا إشارة إلى الناحية العملية البراغماتية.

فكانت الفلسفة بذلك عند مفكري المالطية مسألة عملية إلى حد بعيد وكان في استطاعة الفلاسفة أن يكونوا رجال عمل بل كانوا بالفعل كذلك[2].

كما ذهب "هيرقليطس" في نفس المذهب الطبيعي حيث رأى أن النار هي المبدأ الأول الذي تصدر عنه الأشياء، والأشياء في تغير متصل والتغير صراع بين الأضداد ليجعل بعضها محل بعض، فلولا المرض ما اشتهينا الصحة وهذا دليل على تلك النزعة البراغماتية بطابعها العملي في الفكر اليوناني عامة وفي المدرسة الأيونية خاصة[3] .

في هذا الاتجاه كان عمل المدرسة الفيثاغورية وهي مدرسة علمية عنيت بالرياضيات والموسيقى والفلك والطب وعرفت بعض القضايا الحسابية والهندسية وسميت كذلك نسبة إلى "فيثاغورس" pythagors واحد من أعظم الفلاسفة والعلماء اليونانيين فهو ليس رياضيا فحسب بل أحد العلماء التجريبيين فمن خلال التجربة كشف أسس الاتساق والتناغم في الموسيقى، وهو أول من استخدم الفلسفة كبحث في طبيعة الأشياء(تجربة)كما لعب تلامذته دورا هاما في علم التشريح مستخدمين منهج الملاحظة والتجربة كما اشتغلوا في مجالات مختلفة مثل علوم الصوت والحيوان والطب[4].

(1) راسل برتراند، المرجع نفسه، ص:29.
(2) المرجع نفسه، ص:34،30.
(3) غنيمة عبد الفتاح، فلسفة العلوم الطبيعية، دار الفنون الجميلة، مصر، د(ط)، 1993، ص:13.
(4) المرجع نفسه، ص:14.

اعتبر فيثاغورس الأعداد المبدأ الأول للعالم وهي مفتاح الكون حيث استخدم طريقة تصوير الأعداد بوصفها تنظيمات من النقط والحصى، وتلك في الواقع طريقة في الحساب ظلت باقية بصورة أو بأخرى وذلك من خلال التعامل مع الحصى ولعل هذا فيه إشارة إلى التجربة بمبررات براغماتية عملية(الغاية من الحساب)[1] .

وفي ربط الاتساق والتناغم بالنسب العددية ومعها الأشكال الهندسية هناك تجربة قام بها فيثاغورس وهو مار على دكان حداد، سمع أصوات المطارق وهي تنهال على السنداد، وظن فيثاغورس أن الاختلاف في الأصوات متناسب مع قوة الرجل فطلب منه تبادل المطارق فلم تتغير الأصوات، فوزن المطارق المستخدمة فوجد أن أوزانها المختلفة وفيها تناسب عددي ومن هذا استنتج الوسط التوافقي للأصوات كما ساهمت الفيثاغورية كذلك في علم الفلك مع " أرستارخوس" [2].

دائما وفي إطار الممارسة العملية والتجريبية عند اليونان نجد ديموقريطس Democritus من خلال المدرسة الذرية، حيث دلته التجربة على وجود ذرات مادية غاية في الدقة كالتي تتطاير في أشعة الشمس و الذرات الملونة التي تذوب في الماء والذرات الرائحية التي تصعد من الدخان، حيث رأى أن الكون مكون من ذرات لا نهائية في عددها وخلاء لا نهائي في حدوده[3].

ولمعرفة تركيب المادة قام بتجربة حيث يأخذ أي قطعة من أي مادة ويقطعها إلى أجزاء صغيرة ثم يقطع تلك الأجزاء إلى أجزاء أصغر وهكذا حتى يصل الإنسان إلى أصغر جزء من المادة وهذه الأجزاء هي ذرات ومن هذا فالأجسام تبدوا متصلة ولكنها تتكون من جسيمات متناهية في الصغر [4].

(1) راسل برترانذ، حكمة الغرب، ج1، ص:36.
(2) غنيمة عبد الفتاح، المرجع نفسه، ص:14.
(3) المرجع نفسه، ص:17.
(4) المرجع نفسه، ص:14.

و بهذا تكون المدارس الطبيعية كما لاحظنا قد عبرت عن تلك النزعة التجريبية في العلم الطبيعي كما صاغت تجاربها على خطى براغماتية وعملية واضحة خاصة مع طاليس.

كما نجد داخل البيئة اليونانية حركة واضحة في توجهها البراغماتي والعملي وهذا مع السفسطائيين وهم جماعة فلسفية ذات نزوع منفعي حيث رأوا أن المعرفة ليست بذات أهمية والمهم هو الرأي المفيد وذلك أن في أداء الشؤون العملية يكون النجاح بالفعل هو العامل الذي يطغى على غيره، وفي هذا نجد الفيلسوف "فرديناند شيلر"(1864-1937)Ferdinand Schiller أحد مؤسسي الاتجاه البراغماتي يعتبر نفسه تلميذا لرائد النزعة السفسطائية بروتاغوراس (483-411 ق.م)Protagoras وذلك من خلال فكرة النسبية[1].

وكذا من خلال محورية عنصر المنفعة كدافع للفعل فالبروتاغوراس كان مهتم بالجانب العملي من منطلق تركيزه على النجاح الدنيوي بشكل عام والسياسي على وجه الخصوص ومن ثم تركيزه على البعد الفردي للفكرة التي لا تستند لأي معيار خارج عن التحقق من خلال مقولته الشهيرة " الإنسان مقياس كل شيء والأشياء الموجودة على أنها موجودة والأشياء الغير موجودة على أنها غير موجودة " [2].

ويعود وضع المذهب الحسي في المعرفة لبروتاغوراس حيث أكد على ثلاث نقاط أساسية هي أولا: أن المعرفة أساسها الإحساس وأن الإحساسات دائما صادقة. ثانيا: أن المعرفة نسبية بكل ما تعنيه الكلمة وثالثا: أكد على أن الوجود متوقف على من يدركه فلا وجود لشيء إلا بعد أن يدركه بخيرته الحسية المباشرة[3].

و بهذا يكون بروتاغوراس قد وضع أسس المذهب الحسي وما جاء بعده مع جون لوك وكغيره من الفلاسفة ما هو إلا تجديد في إحياء هذا المذهب من جديد وبهذا نجد

(1) Russel Bertrand, History of western philosophy , vnwim uneversity Books, UK ;8(é) 1962 ,p. 94.

(2) أمين أحمد، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة الكتب المصرية، مصر، ط(2)، 1935، ص:11.

(3) النشار مصطفى، المرجع نفسه، ص:75.

أن السفسطائيين أسسوا حق تأسيس للتجربة وكذا البراغماتية والمحك هنا هو النافع أوالمقيد الذي انعكس على كل المجالات بما في ذلك الأخلاق[1].

من السفسطائيين إلى أعمدة الحكمة اليونانية ومجالات التجريب والفعل عندهم نجد سقراط(399-490) Socrate وذلك من خلال حياته مع العلم يظهر توجهه البراغماتي في توجهه نحو الفعل وذلك من خلال انخراطه في النقاش مع الآخرين من منطلق كل معرفة هي معرفة من خلال المفاهيم فهو استخدم أسلوب الحوار للوصول إلى الحقائق وذلك من خلال العودة إلى الذات(الخبرة) بعبارته "أعرف نفسك بنفسك" وكذا في طلبه بأن تأخذ الدولة بالتربية والتعليم فالمواطن الذي يستطيع أن يشترك في إدارة الدولة وتلقى إعدادا وافيا بالغرض(إشارة للتجربة التربوية)[2].

كما تتضح أبعاد البراغماتية عند" سقراط" من خلال تركيزه على الفعل واعتقاده بالنسبية من خلال مقولته الشهيرة " إني أعرف جيدا أنني لا أعرف شيئا " وكذا دعوته للخبرة من خلال إمكانية التعلم كما ذكرنا داخل الوسط بمساعدة الآخرين بالشكل الذي يعطي للإنسان وعيا لما يدور حوله[3].

وعموما عرف سقراط باتجاهه العقلي بعيدا عن الاتجاه التجريبي أو الحسي لكن هذا لم يمنعه من أن يكون تجريبيا بوجه ما وبراغماتيا بوجه ما كذلك.

أما "أفلاطون"(427-347 ق.م) plato ثاني أعمدة الفكر اليوناني فهو حقيقة لم يقدم للعلم التجريبي أي مساهمة، لكن تضمن داخل نسقه الفلسفي دواعي تجريبية وبراغماتية وذلك بأن فكرته المؤسسة داخل مشروعه التربوي الضخم فإن لما لها من دلالات براغماتية التي ترى بصلاح الفرد والمجتمع فهو يرى من خلال محاورة بروتاجوارس على لسان السفسطائي ويشير إلى دور العمل واستخدامات المعرفة العملية التي ساعدت على انتقال الإنسان من الحياة البدائية إلى المدنية، كما رأى بضرورة وجود

(1) النشار مصطفى، المرجع نفسه، ص:76.
(2) السايح إبراهيم وممدوح دريس مصطفى، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية(تاريخ اليونان)، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، د(ط)، 1999، ص:63.
(3) المرجع نفسه، ص:64.

الفرد داخل المجتمع "فالفرد ضعيف ومن ثم يكون الاجتماع ضرورة تحتمها الحياة الإنسانية وينشأ عن الاجتماع تقسيم العمل لأجل توفير كافة الحاجيات[1].

في المقابل نجد أرسطو(322-384 ق.م) Aristote أكثر اهتمامًا بالعلم الطبيعي بل اعتبره هو مفتاح فهم العالم وكان يعني بالفيزياء نمو الكائن الحي وكيفيته وهذا من خلال كتابه "الطبيعيات" physica، حيث إن طبيعة الشيء التي عند أرسطو هي غاية الشيء نفسه وهذا مطلب براغماتي بحت وذلك أن أرسطو من خلال الاستعمال المنهجي ركز على المعرفة الساعية لفهم طبيعة الإنسان بغرض تأسيس فهم لا يجدد فكاكًا عن النسبية والفعل[2].

كما أن المنهج الفلسفي عند أرسطو لم ينفصل عن التوجه نحو المعرفة الرصينة المبنية على خلفية مؤسسة بغرض الوصول إلى حياة أفضل عن طريق حسن التصرف الذي يماهي الفعل الناضج والاختيار الجيد في إطار الممارسة العملية والتجريبية لذلك نجده يؤكد من خلال منظوره السياسي على التطبيق (العمل) حيث أن كل نظام يعد نظام صالحا لو تم تنفيذه بشكل جيد، ويعد نظام سيء لو مُورس بطريقة سيئة، هذا إلى جانب دعوته إلى حرية الفكر والطبيعة المنهجية داخل مدرسته الفلسفية[3].

ويظهر تأثر أرسطو بالجانب التجربي من خلال تأثره بوالده الذي كان طبيبًا فكانت أعماله الفلسفية عامة والأخلاقية خاصة استنطاق للواقع من خلال فكرة الفضيلة على ضوء علم الأخلاق "الإتيقا" وذلك في ربط الأخلاق بالواقع والتربية داخل التجربة الأخلاقية نفسها والغاية هنا صلاح الفرد والمجتمع وهنا إشارة لنزعة براغماتية واضحة[4].

(1) أفلاطون،الجمهورية، تر: أميره حلمى مطر،مهرجان القراء للجميع مكتبة الأسرة، القاهرة، د(ط)، د(ت) ص: 21.
(2) إبراهيم مصطفى إبراهيم، في فلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط (1)، 2000 ص: 112.
(3) السايح إبراهيم وممدوح درويش مصطفى، المرجع نفسه، ص:61.
(4) أمين أحمد، المرجع نفسه، ص:59.

يعتبر أرسطو من أقوى دعاة النزعة التجريبية وذلك من جراء اعتماده على الجزئي والحسي للإدراك الكلي وللوصول إلى العام الذي هو غاية العلم الحقيقي هذا هو الجانب الإيجابي في الموازنة بين العلم الاستنباطي البرهاني والعلم الاستقرائي وجعل الاستقراء مقدمة ضرورية للقياس هذا الأخير الذي يعتبر الصورة المثلى للصياغة العلمية عنده، وذلك عن طريق البرهان الذي يمثل علم اليقين (انطلاقا من الحس وصولاً إلى البرهان) [1].

وبهذا تكون الفلسفة اليونانية قد اشتملت على حوارات تجريبية وبراغماتية دعت الحاجة بل واستوجب توظيفها داخل الحقل الفلسفي اليوناني وهذا ما يؤكده إنجلز في قوله المبرز لتلك التجريبية اليونانية وفضلها على العلم الحديث " ها نحن إذن نعود لنوافق مؤسسي الفلسفة اليونانية الكبار التي رأت أن الطبيعة كلها من الأصغر حتى الأكبر من حب الرمل إلى الشمس، من وحدة الخلية إلى الإنسان، تكمن في ولادة وموت أبديين بغدق لا ينقطع في حركة وتبدل دونما توقف مع فارق أساسي أن ما كان عند اليونان استبصارا عامًا هو عندنا خلاصة بحوث علمية وتجريبية..." [2].

لا يمكن ونحن في صدد التطرق إلى الأسس الفلسفية للتجريبية الإغفال عن دور التجريبية في الفلسفة القروسطية الإنجليزية خاصة مع روجر بيكن داخل المدرسة أو السكولائية في القرن الثالث عشر.

يعد روجر بيكن (1214، 1294) R.Racon من أبرز الفلاسفة التجريبيين ولو بروحهم اللاهوتية، حيث رأى في العلم الجديد منهجًا جديدًا للبحث،منهجًا لا بد أن يحول طريقة تناول العلم والمعرفة تحويلاً أساسيًا، وذلك بتطبيق الطرق القديمة الرياضية والتجريبية في دراسة الفلسفة واللاهوت [3].

(1) النشار مصطفى، نظرية المعرفة عند أرسطو، دار المعارف، مصر، ط(1)، 1985، ص:44.
(2) ف. ديكاوف كوفالين، المرجع نفسه، ص:379.
(3) عباس فيصل، موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، ط(1)، 1996، ص:78.

كان يميل إلى التجربة ويتذوقها، حيث كانت التجربة أو الأبحاث التجريبية عنده من أهم ركائز العلم والفلسفة فكانت التجربة عنده ميزة وهي أن التجربة تولد يقينا يبعد كل أنواع الشك، ثم هي توصل إليه نتائج لا يمكن للبرهنة وحدها الوصول إليها وأخيرًا هي تمكن حتمًا من معرفة الماضي والمستقبل والحاضر ومن بناء آلات مدهشة فيها منفعة للفرد (البراغماتية) و"بيكن" لا يقترض علم التقييم والكيمياء والسعر أهمية كما لا يعتبره أسمى العلوم[1].

وهو يرى من خلال وازعه الديني أن المعرفة التجريبية وحدها غير كافية فلابد من أشكال عليا للمعرفة "الفلسفة واللاهوت" مساعدة لها كما يوصى بدراسة اللغات القديمة من أشهر مؤلفاته "الكتاب الأكبر"، "الكتاب الأصغر"، "خلاصة الفلسفة" [2].

ثالثًا: العصور الحديثة وميلاد التجربة العلمية

وهنا نتحدث عن التجريبية بين العلم والفلسفة نظرًا لتلك التطورات الحاصلة هاته الأخيرة التي انعكست بدورها على تطور التجريبية ومعها بشكل تاريخي أفقي وعمودي البراغماتية في مفهومها الفاعلي.

ولعل من أهم مميزات هاته الفترة الحروب الدينية وذلك بعد فقدان الكنيسة لدورها السياسي أو التاريخي.

- كما ظهرت بدايات أسلوب الإنتاج الرأسمالي مما أدى إلى ظهور مراكز جديدة للتطور الاقتصادي أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر.
- ظهورالبورجوازية خاصة في بريطانيا ومساهمتهافي حركةالإصلاحReformation
- ظهورالحركة الإنسانية Humainisure وهي حركة تعبرعن الثقافة الزمنية في مقابل الثقافة اللاهوتية والتوجه إلى العلوم الدنيوية.
- ظهور مفاهيم جديدة مثل الفردية، الإنسانية... بالإضافة إلى ظهور العديد من الكتب المنـادية

(1) جونو وبوجوان، تاريخ الفلسفة والعلم في أوربا الوسطية، تر: علي زيعور وعلي مقلد، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، تونس، د(ط)، 1993، ص:112.
(2) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت، ط(1)، د(ت)، ص:187.

بشعارات الحوار والسلام بدلاً من الحروب ومحاولة تفويض سلم القانون على الجميع – كما تميز بدعوة المفكرين إلى العودة إلى الطبيعة ومحاولة فهمها وبالتالي ظهور بحوث جديدة في الرياضيات وفي ربطها بالطبيعة وما وراء الطبيعة هذا الربط الذي وضع أسس الفكر التجريبي الغربي. -كما ظهرت الثورات الفكرية الفلكية والرياضية والعلمية مع غاليلو و كوبرنيكوس وصولاً إلى نيوتن .

كل هذه العوامل والمميزات * ساعدت على تحويل العقل إلى مبدأ مركزي للفلسفة وللمعرفة.وهذا ما جسدته نخبة العلماء أو الفلاسفة لهاته الفترة:

1 - نيقولا كوبرنيكوس (1543-1473) Nicolus Copernicus

هو صاحب الثورة المشهورة باسمه "الثورة الكوبرنيكية" على علم الفلك البطليمي – نسبة إلى بطليموس اليوناني – ففي حين كان يطليموس يعتقد أن الأرض ثابتة وهي مركز الكون وبأن الشمس وسائر الكواكب تدور حولها، جاء كوبرنيك وقال بالعكس بمعنى أن الشمس هي الثابتة وهي مركز الكون وأن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس[1].

فالأرض تدور حول نفسها مرة كل يوم وتدور حول الشمس مرة كل سنة وتعد ثورته هذه أقوى ثورة بعد ظلام ظل دامسًا على جميع العلوم، كما قدم كتب عن تعاقب الليل والنهار وتعاقب الفصول الأربعة كما وصف حركات الكواكب والشمس بالنسبة إلى الأرض في كتاب أسماه "دوران الأجرام السماوية"[2].

كما قدم تجربته في كتاب ظل محرمًا حيث نجده يقول: «تدور الأرض حول نفسها بحيث يواجه كل مكان على سطحها الشمس ويبعد عنها على التوالي ويرجع السر في

*عباس فيصل، موسوعة الفلاسفة، ص: 81، 82، 83.
(1) فضل الله مهدي، فلسفة ديكارت ومنهجه، دارالطلعية، بيروت، ط(3)، 1996، ص:70، 71.
(2) غنيمة عبدالفتاح، المرجع نفسه، ص:34.

تعاقب الليل والنهار إلى هذه الحركة الدائرية للأرض وليس إلى تحرك الشمس والنجوم "، كما لاحظ أن الكواكب الأقرب إلى الشمس تتحرك بسرعة وهذا عن طريق التجريب[1].

فكوبرنيك دون شك يمثل الأساس القويم الذي شيدت عليه كافة المعارف منذ القرن الخامس عشر ويعتبر من أوائل واضعي أسس العلم الحديث من دقة في البحث عن الحقيقة.

2- كيبلر (1561-1630) Kepler

لقد صحح كيبلر خطأ كوبرنيك فيما يتعلق بالمدارات الدائرية للكواكب كما اتفق معه حول أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس ونظهر فلسفة من خلال:

1- مدار الكواكب مدار بيضاوي والشمس مركز هذا المدار .

2- الخط الواصل بين الكواكب والشمس يكون في الفراغ مساحات هندسية متساوية في أزمنة متساوية.

3- المربع الذي يقطعه الكوكب لإتمام مداره حول الشمس متناسب طرديا مع مكعب المسافة " بينه وبينها" فالكوكب لا يدور في شكل دائري بل بيضاوي[2].

3- جاليلو (1564-1642) Galileo

هو عبقرية في العلوم الطبيعية يختلف عن كل الفلاسفة القدامى، كان محبا للعلم وجدواه في تربية شخصية الإنسان وإنمائها وهو أحد رواد العلم الحديث، عاش في عصر إحياء العلوم ثار على الفلسفة الطبيعية القديمة وكان أول من أسس علم الطبيعة على أساس التجريب كما لعب دورا هاما في إنعاش علوم عصره بوصف التجارب

(1) المرجع نفسه، ص:34.
(2)غنيمة عبدالفتاح، المرجع نفسه، ص:36.

الممكنة، كما اهتم بحركة الأجسام بوصفها وتفسيرها تجريبيا وبلغة رياضية تتضمن العدد والمقدار[1]

اعتقد جاليلو أن الملاحظة والتجربة هما الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه العلم الحديث، حيث اخترع مقياسا للنبض وهو لم يزل بعد في صباه كما اخترع الترمومتر وساهم في تطوير اختراع التلسكوب وكذا اختراع الساعات إلى ما يشبه ساعات اليوم[2].

من بين الإنجازات التي تضاف إلى رصيد جاليلو علم الديناميك * " علم الحركة" فهو أول من وضع قانون سقوط الأجسام في صورة رياضية محددة وهو أول من فتح الباب لعلم الديناميك (علم حركة الأجسام المادية) وجعل الميكانيك علم رياضي، وهو يقول أن الكون أشبه بالكتاب الرياضي، الذي هو عبارة عن مجموعة من الرموز ولكي نفهم هذا الكتاب لا بد أن نفهم أولا لغته " الرموز" [3].

فقد نشأ اول فهم حقيقي لحركة الأجسام في القرن السادس عشر بفضل جاليلو الذي خرج عن الأفكار السائدة في عصره وكرس حياته لابتكار التجارب وتعليلها فتوصل إلى فهم حقيقي لطبيعة الحركة ولعل من أهم اكتشافاته التي شكلت حجر الزاوية في الدراسات الفلكية والطبيعية (الفيزقية) وفي علم الميكانيك نجد:

1 - قانون الأجسام الساقطة Laws of falling bodies:

برهن فيه جاليلو على أن الأجسام الساقطة من برج عال مثلا تكتسب نفس السرعة بغض النظر عن أوزانها مع تجاهل تأثير الهواء واستنتج أن جميعها تتسارع نحو الأسفل بنفس المقدار ويبدوا انه قد أعاد التجربة مرارا وتكرارا من برج بيزا المائل[4].

(1) المرجع نفسه، ص:39.
(2) فضل الله مهدي، فلسفة ديكارت ومنهجه ، ص:70.
* هو الثمرة الأولى لاستخدام علم الفيزياء فعلم الحركة جزء من علم الفيزياء فقد مدنا بطريقته وزودنا بمعلومات مكنتنا ولا تزال تمكننا من فهم الطبيعة والكون.
(3) المرجع نفسه، ص:70.
(4) إبراهيم مصطفى إبراهيم، فلسفة العلوم، ص:121.

هذه التجارب فندت الرأي القائل بأن الأجسام الثقيلة تسقط بسرعة أكبر – أرسطو- من الأجسام الخفيفة وهذه التجارب بينت الظروف الحقيقية التي تؤثر على سرعة الأجسام السابقة وهي أن سرعة الأجسام تزيد بمرور الزمن وبعلو المسافة المقطوعة كما بين جاليلو أن الجسم حينما يتدحرج من مستوى مائل، فإنه يصل إلى آخر نقطة في المستوى في تحرك مستمر في خط مستقيم وبسرعة مطردة دون توقف إلا إذا طرأت عليه قوة توقف حركته. وهذا هو قانون القصور الذاتي عند جاليلو[1].

قد وضح جاليلو أفكاره وأبحاثه في علم الميكانيكا في كتابه التاريخي المعروف باسم" عن علمين جديدين" الذي نشره في هولندا عام 1638 حيث استطاع التعبير عن حقائق ونتائج فيزيائية باستخدام الطرق الرياضية، وأهميته في تاريخ الفلسفة ترجع إلى نقطتين إحداهما المنهج العلمي(التجربة) والأخرى إقامة أسس علم الميكانيكا ومن إسهاماته التجريبية مدرسة " شيمنتو" أي التجريب وجاءت كرد على العقلية كان هدفها التجريب ثم النظر والفكر[2].

4- إسحاق نيوتن (1642-1727) Isaac Newton

يعتبر إسحاق نيوتن من العلماء الذين تركوا بصمة واضحة على العلوم الطبيعية حتى أن هناك من ينسب علم الطبيعة الحديث إليه فيقول "علم الطبيعة النيوتوني" فهو يتيم الأب ولد بـ: "ولثروب" إحدى المقاطعات الإنجليزية من أشهر أبحاثه المادة وقوانين الحركة الثلاثة، قانون الجاذبية العام، ونظريات تركيب الضوء[3].

وضع المفاهيم الأساسية لقوانين الميكانيكا واكتشف قانون الجاذبية الأرضية العام واضعا بذلك الصورة الطبيعية للكون، كما أتم حركة الأجرام السماوية وأوضح أهم خواص حركة القمر مع شرح ظاهرتي المد والجزر، وأعط تفسيرا لظاهرة الانعكاسات والانكسارات في الضوء، كما أعاد تفسير تركيب الضوء بإمراره في موشور، و إن

(1) علي محمد ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم " المنطق الاستقرائي"، ص: 84-86.
(2) غنيمة عبد الفتاح، المرجع نفسه، ص:42.
(3) ابراهيم مصطفى ابراهيم، في فلسفة العلوم ، ص: 124،125.

كان ابن الهيثم(965-1038) قد سبقه إلى ذلك من خلال ما وضحه في ظواهر الضوء من نظريات في الإبصار وقوس قزح وانعكاس الضوء وانعطافه[1].

كما يرجع الفضل إليه في إيجاد علم حساب التفاضل والتكامل الرياضي الذي كان له الأثر في تقدم الفيزياء والرياضيات حيث أدخل عليه طرق البحث الرياضية والإحصائية وحساب المتغيرات، كانت مهمته الفلسفية قد وضعت من خلال مجموعة من القوانين،حيث كان يصر على الملاحظة الحسية والتجربة المباشرة هي المعيار الأول والأخير لصدق الفرض العلمي، وأنه لا يمكن أن تقابل التجارب بالأوهام فنيوتن يعطي الأولوية المطلقة للمنهج التجريبي في الفيزياء ويستبعد الأفكار المسبقة والإفتراضات التي تمثل ركيزة أساسية ومنهجية في الفيزياء الديكارتية بدل التجربة والإستقراء[2].

وهكذا يصبح إيمان نيوتن بالمنهج الاستقرائي التجريبي أمرا واضحا لا غبار عليه وهو موقف لاديكارتي أصر العالم الإنجليزي على إبرازه في أكثر من مرة وقد مارس هذا المنهج بالفعل من خلال مجموعة من التجارب التي غرضها تبرير المفاهيم والقوانين الفيزيائية فهو يقول "إن الأجسام المقذوفة تواصل حركتها لكن قوة الجاذبية تجذبها نحو الأرض وصلابة الهواء تؤخرها[3].

وهذا ما أكده في جملة القوانين التي صاغها من خلال مجموعة من التجارب والتي تظهر في قوانين الحركة الثلاثة، ففي قانون القصور الذاتي يرى أن كل جسم يبقى على حالته ما لم يطرأ عليه ما يغير حالته، فالمتحرك متحرك والساكن ساكن ما لم تؤثر عليه قوة خارجية، أما في قانون التناسب وقوة السرعة فهو يرى أن القوة الواقعة على جسم ما تتناسب طرديا مع تغير كمية الحركة التي يحدثها ذلك الجسم في زمن ما.

فالقوة التي تؤثر على جسم ما تساوي كتلة الجسم في سرعته أما آخر قانون وهو قانون الفعل ورد الفعل المضاد والذي يرى فيه أن لكل فعل رد فعل مساوي له في المقدار

(1) غنيمة عبد الفتاح، المرجع نفسه، ص: 45.
(2) بشة عبد القادر،الإبستمولوجيا "فلسفة الفيزياء النيوتونية" ، دارالطليعة، بيروت، ط(1)، 1990، ص:88.
(3) المرجع نفسه،ص:89.

ومضاد في الاتجاه ويقدم في هذا الصدد تجربة فيذكر أنه إذا ما جذب حصان صخرة فهو بدوره مجذوب من طرف الصخرة لأن الحبل الذي يربط بينهما يستعمل الجهد نفسه لجذب الصخرة نحو الحصان ولجذب هذا الأخير نحو الصخرة[1].

هذه التجارب وإن كانت ذهنية إلا أنها تؤكد على الفعلية التجريبية عند نيوتن وعلى ممارسة المنهج التجريبي ومهما يكن الأمر فكتاب نيوتن "المبادئ الرياضية" يعج بمثل هذه التجارب على تنوعها وتشعب الظروف التي تقام في إطارها والأكيد إذن أن نيوتن تجريبي في علم الطبيعة[2].

ولا يمكن الحديث عن نيوتن بدون التطرق إلى أهم قوانينه وأكثرها شهرة ألا وهو قانون الجاذبية.وهو قانون يفسر وجود حركة في الكون سواء في الأرض أو في الأجسام السماوية فالذي يجعل الأرض تدور حول الشمس هو الذي يجعل القمر يدور حول الأرض، وهو ما يسمى التجاذب بين الأجسام وهو قانون يطبق على أي جسمين في العالم وتجاذب الجسم مع الأرض أوضح من أي تجاذب آخر لعظمة حجم الأرض ولقربها ويؤكد نيوتن أن قوة التجاذب هي المسببة لسقوط الأجسام نحو الأرض وهذا يعتبر أعظم كشف رياضي[3].

وفي التأكيد على الجانب التجريبي في فلسفة نيوتن نجد "موبرتوي" يوضح استعمال التجربة عند نيوتن كما ذهب "ليون بلوك" من خلال كتاب "فلسفة نيوتن" إلى أن يكون يعد كرجل فيزياء غايته الوحيدة القيام بالتجارب الدقيقة ولعل هذا ما خلف عن نيوتن في الابتكارات التقنية مثل التلسكوب ولذلك نجد بلوك دائم التأكيدعلى المنهج التجريبي في الفيزياء النيوتونية[4].

(1) المرجع نفسه، ص:90.
(2) بشة عبد القادر، المرجع نفسه، ص:91.
(3) مطلب عبداللطيف محمود، الفلسفة والفيزياء "الموسوعة الصغيرة"، ج 2، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، العراق د(ط)، 1985، ص: 10.
(4) بشة عبدالقادر،المرجع نفسه، ص:92.

إنه وفي إطار الحديث عن الأسس الفلسفية للتجريبية ومعها بذلك البراغماتية لا بد من التوقف عند الألمان بالرغم من نزعتهم المثالية وتحديدا عند ايمانويل كانط.

يعد **كانط** أو **إيمانويل كانط (1764-1804) immanuel kant** من أهم فلاسفة القرن الثامن عشر وإذا نظرنا إلى توجهه البراغماتي فيعد هذا واضحا من خلال ما أثر به في الفلسفة البراغماتية خاصة مع بيرس وذلك من منطلق تقاطعهما في الاهتمام المشترك لتأسيس أطر العقل العملي[1].

كما تظهر التجريبية عند كانط من خلال قراءته لبعض كتب "هيوم" المترجمة إلى الألمانية والتي توضح أكثر من خلال كتابة "نقد العقل الخالص" 1781، ولم يكن كانط فيلسوفا فحسب بل كان عالما طبيعيا كبيرا أيضا في مجالات الانتروبولوجيا والجغرافيا الفيزيائية والكسموجونيا (علم أصل الكون) وتطورها وهذا إن دل فإنما يدل على نزعته العلمية التجريبية والبراغماتية[2].

وقد أكد كانط أن العالم الخارجي والذي أطلق عليه اسم عالم التجربة ليس مادة فحسب بل مادة وعقل ولا يمكن أن نفصل العقل عن التجربة، بحيث أن عالم التجربة ماهو إلا عالم خارجي مضاف إليه القوانين والشروط العقلية ولذلك نجده يدعو إلى تصور العقل والتجربة تصور ديناميكيا ولذلك كان كانط يدعو إلى التجربة العلمية التي تقوم على المشاهدة الحسية والتجربة المعملية[3]

وهذا ما يؤكده من خلال الأحكام البعدية أو التأليفية التي تستلزم التجريب مثلا إذا قلنا هذا الجسم ثقيل أو حار أو بارد فيجب هنا العودة إلى التجربة بمفهومها العلمي وبهذا فهي أحكام تركيبية أو تأليفية أي أننا لا نستطيع أن نصدرها إلا بعد الاحتكام إلى التجربة فنؤلفها أو نركبها من التجربة تركيبًا فنعرف باللمس مثلا إن كان الماء حارًا أو باردًا [4].

(1) جديدي محمد، المرجع نفسه، ص:18.
(2) عباس فيصل، المرجع نفسه، ص:136.
(3) هويدي يحي، قصة الفلسفة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د(ط)، 1993، ص:72.
(4) المرجع نفسه، ص:74.

فهو يرى أن تقدم العلم راجع إلى الجمع بين العقل والتجربة فلو أن العلم اكتفى بأولية أحكامه لأصبحنا عاجزين عن التفرقة بين أحكامه وأحلام الفلاسفة التي تعتمد فقط على العقل، وهنا تتقدم التجربة لتكون محكًا للعقل فتؤمن على نتائجه ونظرياته وتضيء له النور الأخضر كإشارة لصحة أحكامه، لكن مع ذلك لا يجب أن يكتفي العلم بالتجربة وحدها فيصبح سجينا لأسوارها ويمنعه هذا من التقدم[1].

فلسفة كانط النقدية فلسفة تضع الحدود أمام العقل لكي لا يتجاوز نطاقه وليظل في أحكامه مقيدا بالتجربة، ولو تركنا هذا العقل على هواة لقدم لنا أراء غير واقعية ولأشبعنا من شطحاته وسحبنا من أيدينا إلى عالم مليء بالأوهام والأحلام البعيدة كل البعد عن الواقع فهو أراد أن يلحق الفلسفة بدرب العلم وأن يحميها[2].

و كانط عندما قال بالتجربة فهو يقصد بها التجربة الإنسانية التي تشتمل على العلاقة المعرفية للإنسان بالكون والأشياء التي يدركها الإنسان في واقعه الملموس أو في الطبيعة وهذه نفس الفكرة التي وجدت عند البراغماتيين وتحديد عند جون ديوي هذا الأخير الذي سيظهر تأثره بكانط في طريقة التعمق بمنظور العقل الفعال بدلا من العقل المذعن والهامد والاتجاه نحو التطبيق وذلك في البحث عن أسس محددة للإرادة وهذا ما أكده كانط من خلال كتابه نقد العقل العملي[3].

دائما وداخل السياق التجريبي عند كانط نجده يتحدث بمثالية واقعية حيث ابتعد عن الميتافزيقا في مقابل ماهو ظاهر أو كما أسماه عالم الظواهر في مقابل عالم الشيء في ذاته فنجده يرد على من يبحثون في الله والنفس فيقول على شكل تساؤل هل من سبيل أن يلتقوا مع الله في تجربتهم على نحو ما يلتقون مع الأشياء والظواهر، وهل يستطيع أحد أن يجزم لنا أنه صادف ما يسمونه باسم النفس؟ وهكذا يظهر كانط بتجربية واقعية محورها الإنسان والطبيعة [4].

(1) هويدي يحي، المرجع نفسه، ص:75.
(2) المرجع نفسه، ص:75.
(3) هويدي يحي، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، القاهرة، د(ط)، د(ت)، ص:97.
(4) هويدي يحي، قصة الفلسفة الغربية، ص:78.

وبالتالي فقد تحدث كانط عن التجريبية فجعل منها تجريبية معقولة محك الصدق فيها العلاقة القائمة بين العقل والتجربة لكن في حدود عقلية واضحة تبنتها فكرة العقل العملي ولو بصورة لم ترق الى مستوى التجريب الذي سيظهر خاصة مع الفلسفة التجريبية الانجليزية .

الفصل الثاني: التجريبية الإنجليزية

المبحث الأول: التجريبية الإنجليزية الكلاسيكية

المبحث الثاني: التجريبية الإنجليزية المحدثة

التجريبية الانجليزية

سار الخط الرئيسي للفلسفة الانجليزية في طريق متصل منذ عصر النهضة إلى اليوم، و هذا الخط ما يعبر عنه بالمذهب التجريبي هذا الأخير الذي له حق أكثر من أي مذهب أخر في إرجاع أصله إلى تراث طويل.

لكنه لم يتغلغل في أي بلد بنفس العمق والتأصل الذي تغلغل في الجزر البريطانية، ليكون بذلك مدرسة قومية أو وطنية، و هذا ما دل عليه الخط الفلسفي الممتد من بيكن الى لوك وبركلي وهيوم ثم بنتام ومل.

ليكون بذلك الحديث عن تجريبية في واقع انجليزي، تجريبية عبرت عن الروح الانجليزية أوبمعنى أصح عبرت عنها الروح الانجليزية من خلال متطلباتها الاستثنائية (الليبرالية) وميكانزماتها الحسية وأفاقها الواقعية الإنسانية التي لطالما سعت إلى بلوغها.

هكذا خلدت التجريبية اسمها في الدستور البريطاني عامة والفلسفي خاصة في تبني صريح صراحة طرقها المنهجية المؤطرة ومسلماتها النظامية المحققة حتى تكون التجريبية الانجليزية الصورة الأصدق والمعبر الأمثل لكل التجريبيات.

I- التجريبية الانجليزية الكلاسيكية

مما لاشك فيه أن التفكير الفلسفي المنظم قد أسس للمعرفة الحقة، فأوضح طريقها، وسهّل مسلكها، و قرّب مأخذها، ليجعل من المهمة الفلسفية نهضة قائمة على الوعي، و ما الوعي إلا نشاط بلغ درجة رفيعة من درجات المعرفة ومنزلة راقية في فهم الوجود والموجود.

وهذا ما عبرت عنه التجريبية الانجليزية في مرحلتها الكلاسيكية من يقظة ووعي لتضع بذلك الطرق العلمية والتجريبية للبحث في الطبيعة، في إطار الفاعلية والنجاح والسيطرة والتحكم، وبالتالي آن الأوان بل وقد حسم بتجريبية وضعت كلمتها الأخيرة ضد الدوغمائيات والثنائيات وسائر المبررات.

تجريبية تجردت من الموروث، لترسم مشوارها على أساس الجدة والبديل في تأطير المشهد الثنائي في انجلترا ابتداء من بيكن واستكمالا مع لوك وبركلي وهيوم وسميث على مدى القرنين وبالتالي:

فيما تجسدت مشاهد التأطير من خلال هذه المرحلة؟ وما مظاهر الإبداع التجريبي فيها؟

لقد عبرت فترة مابين القرنين السابع والثامن عشر عن نهضة فكرية محققة للانجليز، و ذلك من خلال نخبة فلسفية أسست للواقعة التجريبية، و جعلت منها فلسفة انجليزية بإبداع انجليزي قائم على التجديد والتأسيس خاصة مع مؤسسها الأول" فرنسيس بيكن" وما تبعه من نخبة فلسفية..

أولا: فرنسيس بيكن(1561-1626) F.Bacon

لم يمض عصر النهضة بما تفتح فيه من براعم جديدة للمعرفة وما انبثق عن البذور المودعة في حقله من نبت وليد للفلسفة التجريبية، دون أن يترك في هذا الاتجاه أثارا بالغة المدى عميقة الجذور بلغت نضجها وحققت ثمارها على يد فرنسيس بيكن[1].

الفيلسوف المحدث الذي يعد الأب الروحي للبحث الفلسفي التجريبي الانجليزي حيث يعبر عن مرحلة حاسمة وهامة في تيار الفكر والتفكير،فهو الفيلسوف الانجليزي الدارس للقانون في جامعة كمبرج بالإضافة إلى توليه مناصب كبرى في الدولة وقد بلغ الطموح منه مبلغا دفعه إلى أن يكون مؤسسا للروح العلمية الجديدة في عصره، فإذا كانت الفلسفة في العصور الوسطى قد كرست نفسها لخدمة الدين فإنها مع بيكن سعت إلى اكتشاف حقيقي وإصلاح الدين[2].

عن الجوانب الشخصية في حياته هو ابن مدينة لندن من أبوين انحدرا من صلب العراقة والكرامة فقد كان والده نيكولاس بيكن يشغل منصبا من أكبر مناصب الدولة. كما ساعدت التغيرات الاجتماعية والسياسية التي مرت بها انجلترا قبل مولده- نزعت عن نفسها سيطرة رجال الدين واصطبغت الصبغة الزمنية- كل هذه المؤثرات البيئية والهيئة العامة في انجلترا كانت ملائمة أشد الملائمة لظهور مفكر متحرر يؤمن بالعلوم الزمنية ويهاجم كل أنواع السلطة في ميدان العلم[3].

و ليس من سبيل للمبالغة إذا ما قلنا بأن العلم التجريبي أول ما بدأ عهده مع فرنسيس بيكن الذي كان فيلسوفا واقعيا، أقام فلسفته على صرحي الملاحظة الخارجية من ناحية والتجربة العملية من ناحية ثانية كسبيل لضحد التقليد العقلي خاصة ما وجد قبلا مع أرسطو ومن هنا تبدأ حكاية فرنسيس بيكن مع العلم والتجريب والتجديد[4].

---

(1) بيطار محمد عبد الرحمن، تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط(3) 1980، ص:27.

(2) Dumas jean- Louis, Histoire de la pensèe, Renaissance et siècle le lumières dèpot legal, london ,5(é) , 1993,p.170.

(3) بيطار محمد عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص:28.

(4) فضل الله مهدي، فلسفة ديكارت ومنهجه، ص:67.

فقد أخذ على عاتقه مواصلة ما بدأه سميه وروجر بيكن من قبل، فتعهد ما غرس وواصل السير في الطريق حتى بلغ منتهاه فأعلن نجاح الهدف وصلاحية المنهج للتطبيق العملي والتنفيذ الجدي في مجال الحياة القومية للإنسان، و لهذا يعتبر فرنسيس بيكن في نظر المؤرخين الواضع الأول للفلسفة الواقعية ككل، الموحد والمقنن للعلم التجريبي فاستحق حينئذ أن يطلق عليه لقب " الفيلسوف المجرب" أو الفيلسوف الواقعي[1].

و يظهر عمل بيكن بشكل كبير من خلال مشروعه الكبير "الأحياء العظيم" هذا الأخير الذي قسمه الى ستة أجزاء لكنه لم يتم الا واحد منه وهو أعظم جديد في فكر بيكن ألا وهو "الأرجنون الجديد" " Novum Organum "1620 هذا الذي يعد نافذة على فلسفة بيكن ككل من كشف للقيم الجديدة التي تتضمنها الحضارة العلمية الحديثة في أول عهودها واستخلاصا للمضمونات الفكرية لعصر الكشوف العلمية والجغرافية والتعبير بصورة عقلية عن التغيير الذي تستلزمه النظرة الجديدة إلى الحياة[2].

وأول ما تتميز به الفلسفة التجريبية مع بيكن من خلال الأرجانون الجديد هو تجديدها للمنطق ونظريتها الجديدة في الاستقراء، وبالتالي من خلال هذين العاملين أسس بيكن لمنطق جديد وفلسفة جديدة بتجريبية جديدة وواقعية أكثر جدة .

و ذلك بالكشف عن منهجه الجديد الذي لاءم عصر التجريب والروح العلمية الجديدة فقد قدم نقدا لاذعا للقياس الأرسطي ورفض الصورية المطلقة التي اتسم بها الفكر المنطقي الحديث حيث رأى عجزه عن اكتشاف أسرار الطبيعة بل أنه أكثر من ذلك أدى إلى ترسيخ الأخطاء خاصة وأن يكون قد أدرك بوضوح تام هذا العيب وهو الاعتقاد بأن العقل النظري وحده الكفيل للوصول إلى العلم[3].

(1) بيطار محمد عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص:28.

(2) سالم محمد عزيز نظمي، تاريخ الفلسفة، مؤسسة الشباب الجامعية، مصر،د(ط)، د(ت)، ص:203.

(3) محمد علي ماهرعبد القادر، فلسفة العلوم"المنطق الاستقرائي"، ص:95.

و على هذا الأساس عاد بيكن تقويم الفلسفة فكان بذلك متجها إلى الطبيعة ملاحظا ومجربا، فالموضوعات التي تكشف عن اتصالها بالواقع جديرة بالبحث العلمي أما الأفكار التي لا تنسحب على الواقع فإنما هي من قبيل الأفكار الميتافيزيقية .

فبيكن رأى في تحقيق العلم وغايته أن يبدأ المرء كأنه طفل بريء، وأن يتحرر من كل سلطة مفروضة على ذهنه، و أن يستخدم عقله ويضع لنفسه منهجا صحيحا وبذلك يصل إلى الحقيقة دون معونة من أراء القدماء، ذلك في إطار النقد الموجه إلى أرسطو، يرى بيكن أن المنطق الأرسطي أداة غير صالحة للكشف فهو قياس تكون فيه النتيجة صادقة على حسب المقدمات لا على أنها صادقة بالفعل[1].

في حين أن العلم يقتضي كشف النتيجة من جديد، و هذا ما حاول بيكن أن يثبته في ثورته العلمية والمنهجية، أن سلطة القدماء وفلسفاتهم اللفظية لا جدوى منها في الوصول إلى الحقيقة، و إنما هي عقبات تجعلنا نكتفي بمواجهة الألفاظ بدلا من أن نواجه الطبيعة والأشياء المباشرة ولذلك دعي بيكن إلى تطهير عقولنا من أثار الماضي والتي أرجع لها أوهام العقل وهي بمثابة الأوهام التي ينزلق فيها التفكير وهو بصدد البحث ولذلك سماها بالأوهام .

1 - أوهام القبيلة Idoles of the tribe وهي الأوهام التي تكمن في جوهر الإنسان من خلال الإيمان الأعمى بالعادات والتقاليد وبما أن الإنسان مرآة الأشياء وجب تنقيته من كل هذه الشوائب.

2 - أوهام الكهف Idoles of the cave : مرتبطة بشكل مباشر بخصوصية المشاعر والأوضاع العابرة للفرد ويمكن تفاديها عن طريق الاستفادة من تجارب الأفراد[2].

3 - أوهام السوق Idoles of the market:

(1) محمد علي ماهرعبد القادر، المرجع نفسه، ص:96.

(2) زيدان محمود فهمي، الاستقراء والمنهج العلمي، دارالوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر،ط(1)،2002، ص:87.

وهي الناتجة من جراء الاتصالات الجماعية تحت تأثير اللغة مما يترتب عليه كثير من الجدل والاختلاف ولهذا فان بيكن يرى من الخطأ استعمال اللغة في العلم فاللغة لها في اللفظ الواحد أكثر من معنى...

4 - أوهام المسرح: Idoles of théatre:

إن هذا النوع يعتمد على الإيمان الأعمى للشهرة والسمعة ويحاول مضاعفة أخطاء الآخرين القدماء، فمثلا الفلاسفة القدامى نظموا نظريات والناس يتلقونها مثل ما تتلقى المشاهد في المسرح، و بيكن يرى بضرورة رؤية الأمور بعيون خاصة ويقين حقيقي من خلال ما نتعلمه نحن بأنفسنا (الخبرة)[1].

فالوجه الايجابي عند بيكن هو الإيمان المطلق بالعلم وبقدرته على تحسين أحوال البشر، ليكون العلم بذلك أداة يستخدمها الإنسان لتعينه على فهم الطبيعة وبالتالي السيطرة عليها، و قد قدم بيكن بذلك منهجا جديدا من خلال مؤلفه الرئيسي "الأرغانون الجديد" وهو كما قلنا معارضا تماما للعلم القديم ومنهجه "الأرغانون الأرسطي".

وذلك بتحديد قصوره من جهة والسعي إلى اكتشاف فكر بديل، أكثر كفاءة وقدرة على الإجابة عن الأسئلة الجديدة ومن جهة أخرى يرى أن الشرط الأول لإصلاح العلم، و تقدم المعرفة الإنسانية هو تحسين طرائق التعميم واستخلاص المفاهيم بوضع نظرية للاستقراء، و الشرط الثاني تخليص العقل من الأوهام[2].

و لهذا فالاستقراء والتجريب هما أساس المعرفة العلمية ولذا اعتبر بيكن "العلم قوة" وأكد على ضرورة معرفة القوانين الطبيعية، فهي وحدها تؤدي إلى الاختراع، كما يرى بيكن أن الذي يحدد العقل هو الملاحظة والتجربة، أما العقل فهو أداة تصنيف وتجريد ومساواة ومماثلة، فالإنسان خادم للطبيعة مفسر لها خاضع لنظامها وخدمة

(1) زيدان محمود فهمي، المرجع نفسه، ص:88.

(2) سالم محمد عزيز نظمي، المرجع نفسه، ص:204.

الإنسان للطبيعة هي التي تؤدي إلى إدراك وسيادة الإنسان عليها أي باكتشاف كل ما يتصل بها وتسخيره لخدمته(البراغماتية)[1].

إن الاستقراء مع بيكن جاء للتأكيد على أهمية الطبيعة على حساب المنطق في حين كان القياس Silogisme يؤكد على أهمية المنطق في مقابل الطبيعة وبهذا بيكن حمل دعوة تنظيم البشرية وإرجاع الفكر للأصل(الطبيعة) والتخلص من عبودية المنطق، وهكذا اتجهت فلسفة بيكن إلى القيام بأنواع جديدة من الدراسات العلمية التي ترتبط بحياة الإنسان ارتباطا وثيقا(البراغماتية)، بحيث يكون هذا العلم أساسا متينا تبنى عليه الفلسفة الجديدة، بدلا من ذلك الأساس الواهي القديم، وهوالتجريدات اللفظية الخاوية[2].

حيث عالج بيكن أخطاء الفكر الموروث مبينا ثلاث أنواع من التفكير وهي: النظري ويمثله أرسطو، والنوع التجريدي العشوائي وهو الذي يعتمد على تجارب قليلة لا تخضع لمنهج منظم، و النوع الثالث وهو المتمثل في الخرافات ويمكن تلخيص أثار فلسفة بيكن في الفكر الحديث في:

1 - حدد العلم من حفظ المعارف وترديدها وخلصه من التبعية للموروث.

2 - الدعوة إلى الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي (القطيعة).

3 - نادي بفلسفة جديدة ومنطق جديد يرتكزان على أساس متين من العلم الطبيعي والتوجه أكثر إلى علوم الحياة بعيدا عن الميتافيزيقا التجريدية[3].

وتمثل فكرة المعرفة قوة حجر الأساس في فلسفة بيكن التجريبية وفيها يرفع بيكن شعارا لمشروعه الجديد الذي اثبت فيه أنه لا معرفة في ذاتها ولا حقيقة في ذاتها. فكل معرفة عنده يجب أن تكون مقيدة بمعنى أن تخدم مملكة البشر على

(1) سالم محمد عزيز نظمي، المرجع نفسه، ص:205.

(2) زيدان محمد فهمي، المرجع نفسه، ص:85.

(3) إبراهيم عبد الله، المركزية الغربية، المركز الثقافي الغربي، المغرب، ط(1)، 1997، ص:66.

الأرض، و ذلك بمعرفة قوانين الطبيعة وأسبابها وبالتالي إرغامها وتسخيرها وهذا لا يتم إلا بالطاعة .و في هذا المضمار يقول بيكن " ننتصر على الطبيعة بأن نطيعها"[1].

هكذا يكون بيكن قد أثبت بتجريبيته ما لم يثبت قبله من تجديد وتغيير ليرسي بذلك دعائم فكر علمي جديد سرعان ما استقام بوصفه تيارا فلسفيا علميا تجريبيا، استكمل طريقه على يد اللاحقين من أمثال لوك وهيوم وأصبح أهم شواهد العصر الحديث.

ثانيا: جون لوك (1632-1704) John Locke

يعد جون لوك الخليفة الأول للفرنسيس بيكن، وهو أحد ابرز الفلاسفة الانجليز وأكثرهم عطاء، يوافق ميلاده ميلاد سبينوزا، كان ذو تركيبة وضعية وتجريبية منذ صغره- كان له تكوين علمي(طبيب)- الأمر الذي جعله من رواد التجريبية وهذا ما أبانه من خلال جملة من مؤلفاته والتي أهمها "محاولة في الفهم الإنساني" 1690 رسالة في التسامح 1692، رسالتين في الحكومة 1690 وبهذا يكون لوك قد أسس للمعرفة التجريبية ووضع أسسها[2].

نظم لوك الأطر الفلسفية للتفكير العلمي الذي نشط طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر أو عمق أسس الفكر التجريبي، فالبحث المعرفي(الايبستمولوجي) الذي قام به لوك هو أساس لفلسفة نقدية تعد تجريبية بمعنيين: الأول أنها لا تصدر مقدما حكما يحدد نطاق المعرفة البشرية كما فعل العقليون، و الثاني أنها تؤكد عنصر التجربة الحسية، لذلك كانت هذه النظرة بداية للتراث التجريبي الذي حمل لواء بركلي وهيوم ومل[3].

---

(1) إبراهيم عبد الله، المركزية الغربية، المرجع نفسه، ص:66.

(1) بدوي عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفية، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط(1)، 1984 ص:377.

(3) عبد الله إبراهيم، المرجع نفسه، ص:67.

انصب اهتمام لوك منذ البداية على البحث في أصل المعرفة الإنسانية ويقينها وحدودها وقد رأى أن على الفلاسفة ألا يتجاهلوا العلوم الطبيعية بل يجب أن يضعوا نصب أعينهم تأثير الكشوف العلمية على فلسفاتهم بل وعلى الآراء العادية التي تعبر عن الذوق(الفطري) وأن الحكم على العالم يجب أن يكون في نفس درجة حكم العالم الطبيعي عليه ولذلك دعى إلى إزالة الأوهام والتحيزات القديمة، فقال " حسبي من الطموح أن أشتغل عاملا تابعا يطهر الأرض قليلا ويزيح بعض المهملات التي تعترض طريق المعرفة "[1].

فكانت الخطوة الأولى في هذا البرنامج الجديد هي بناء المعرفة على التجربة وحدها، مما يعني رفض الأفكار الفطرية وبالتالي مذهب القائلين برد المعرفة إلى الفطرة وهم أصحاب النزعة العقلية من أمثال ديكارت ولعل هذا راجع إلى تكوينه العلمي فكانت بناءاته كما كانت نداءاته في مجال المعرفة التجريبية إلى حد بعيد، حيث نادى بأن كل معرفة مستمدة من التجربة والخبرة الحسية ذلك أن الإحساس هو المصدر الوحيد لديه للمعرفة[2].

فكانت التجربة عنده نوعين، التجربة الحسية الظاهرية المتصلة بالعالم الخارجي والتجربة الباطنية التأملية المتصلة بالعالم الداخلي وسائر الأفكار، لتكون التجربة والإحساس سابقات للعمليات العقلية، إذ أن العقل لا يعمل إلا بعد أن تمده الخبرة والتجربة بالأفكار والمعاني فيحاول أن يتأمل هذه الأفكار بمعنى أن سائر الأفكار وليدة التجربة وليست فطرية وأن معرفتنا مكتسبة وأن اكتسابنا لها يأتي عن طريق الخبرة الحسية ومن ثم يقال أن لوك هو مؤسس المذهب التجريبي في الفلسفة الحديثة[3].

(1) راسل برتراند، حكمة الغرب، ج2، تر: فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، سلسلة عالم المعرفة، العدد72، الكويت، سبتمبر، 1983، ص:84.

(2) عبد الله إبراهيم، المرجع نفسه، ص:67.

(3) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط(1) 2001، ص:261.

دائما وكرد على أصحاب النزعة العقلية من خلال سؤاله المهم ما أصل الأفكار؟ يقول لوك دعنا نفرض أن العقل صفحة بيضاء "Table rase " خالية من كل كتابة أي خالية من أي فكرة فطرية. وبالتالي السؤال كيف يصل العقل إلى ما يصل إليه من أفكار؟ فيجيب لوك بأن معرفتنا وسائر الأفكار تأتي عن طريق التجربة إذ أن الورقة كيف تمتلئ، وهنا نجد علاقة بالكتابة وبالتالي التجربة، هكذا تصبح المعرفة مكتسبة من التجربة[1].

بهذا يكون لوك قد قدم نقدا نهائيا وقطعيا لديكارت وفي مقابل ذلك نجده يؤسس وينظم لمعرفة حقة تقوم على أساس الإحساس، فهو يرى أن الذين يسلمون بالطابع العقلي أي الفطري للمفاهيم العقلية والمبادئ الفطرية يركنون في الحقيقة إلى حجج واهية، فإذا ما استعانوا بالقبول العام، قائلين إن أفكار المعرفة هي أفكار فطرية والمبادئ المسلم بها فطرية، فإنهم يحاكمون محاكمة سخيفة ولذلك يقدم لوك مبدأ الاختلاف بين البشر حول الأفكار كدليل على عدم صحة فطرية الأفكار ولو كانت هذه الأخيرة صحيحة لوجدنا عند سائر الناس نفس الأفكار بحكم الفطرة[2].

صنف لوك الأفكار إلى نوعين في الذهن يرجع كل منهما إلى التجربة التي تعتمد على الملاحظة الأولى خارجية أو موضوعية مصدرها الحس الظاهر والثانية داخلية ذاتية مصدرها التفكير، و لا يعني ذلك أن الأفكار التي توجد في العقل يكون مصدرها الأولى دون الثانية بل يرجع مصدرها إلى التجربة الخارجية والتأمل الداخلي لترد المعرفة برمتها إلى الحس، و قد تحدث لوك عن أفكار بسيطة لا تقبل التحليل حيث يكون العقل سالبا فيها مثل صفات " البرودة والصلابة والحلاوة" وأفكار مركبة تستدعي التحليل وعمل العقل مثل الضروب " جمال الزهرة والجواهر..."[3].

(1) Hutin Serge, la philosophie Anglaise et Américaine, presses universitaires de France 108 Boulevarde saint- Germain, paris, s(é) 1963, p.25.

(2) كريسون أندريه، تيارات الفكر الفلسفي "من القرون الوسطى حتى العصر الحديث"، تر: نهاد رضا، منشورات بحر المتوسط ومنشورات عويدات، بيروت، باريس، ط(2)، 1992، ص:202.

(3) عباس عبد المنعم راوية، المرجع نفسه، ص:42.

فأهمية التجريبية عند لوك ورفضه لفطرية المعرفة أنه قد جعل منها قاعدة عامة يبدأ منها ليبني ما هو قائم على الحق والصواب والنفع فكانت أول معول من معاول هدم الاتجاهات المثالية والعقلية القديمة وأصبحت في نفس الوقت تدعيما لأول درجة من درجات سلم الاتجاهات التجريبية والحسية والواقعية الجديدة، فلوك هو أيضا طبق التجريبية من منطلق الرفض مثلما فعل بيكن من قبل – رفض منطق أرسطو- [1].

من نظرية المعرفة عند لوك وأطرها التجريبية إلى الجانب العملي وجدير بالذكر، أن لوك قد ترك أثرا كبيرا في المجال السياسي والأخلاقي وقد جاءت كتابات لوك السياسية في منحاها العام متأثرة بأفكاره التجريبية التي بنى عليها فلسفته ومن رفضه للأفكار الفطرية جاء رفضه في السياسة لما يعرف بالحق الإلهي للملوك مخالفة لما كان يدعو إليه هوبز من وجوب الالتزام بالنظام المطلق، و ما كان يدعو له أيضا روبرت فيلمر في كتابه الأبوة أو " السلطة الطبيعية للملوك" من حق الملوك المقدس في حكم شعوبهم حكما استبداديا مطلقا[2].

لقد كان لوك من أشد المفكرين دعوة إلى الحرية لذلك كان يعارض الحكم السياسي المطلق سواء الذي نادي به سلفه هوبز أو الذي كان يتبناه المحافظون من الأسرة الحاكمة في بريطانيا في عهده، فان لوك على العكس كان يعتقد أن الإنسان في الحالة الطبيعية كان ينعم بالحرية والسلام وقد جاءت الدولة من أجل تحقيق المساواة بين الناس[3].

و ضمن مشروعه السياسي الذي يعد مشروع أخلاقي واجتماعي أكثر منه سياسي يوضح لوك طبيعة الحالة المدنية وهي المرحلة التي كانت فيها الملكية

(1) إسلام عزمي، نوابغ الفكر العربي " جون لوك"، دار المعارف، مصر، د(ط)، 1964، ص:46.

(2) زوخي إسماعيل، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط(1)، 2001 ص:202.

(3) عبد المعطي فاروق، الأعلام من الفلسفة " جون لوك"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(1)، 1993، ص:145.

والحرية والحياة حق من حقوق الوجود ولم يكن هناك إلا قيد واحد يتمثل في قانون الطبيعة[1].

في إطار النزعة التجريبية والروح الواقعية بل الأكثر من ذلك الأخلاقية دعى لوك إلى الانتقال إلى المرحلة السياسية بالرغم من كل مميزات المرحلة الطبيعية فكان بذلك " العقد الاجتماعي" بهدف ضمان أكثر للحريات والأمن والاستقرار، ليكون التنازل للحاكم كما كان الاستبداد مرفوض وإمكانية الثوران على الحاكم قائمة وذلك في حالة الخروج عن القوانين ودخوله حيز الاستبداد والاضطهاد[2].

وبالتالي فقد رفض لوك الحكم المطلق وأكد على الحكم الديمقراطي المقيد برأي الأغلبية فالحكومة المدنية كانت من أجل خير المجتمع، والدولة ليست غاية في حد ذاتها بل وسيلة لخدمة الفرد ومجتمعه فتصبح السلطة كفيلة وملزمة بكفالة الملكية الفردية وتكون الغاية واحدة ألا وهي الاستقرار والسلام والأمن وتحقيق الخير العام للشعب[3].

دائما وفي إطار التجريبية عند لوك ومقوماتها الواقعية والإنسانية نجد لوك من خلال فكرة التسامح يعبر عن هاته المقاصد بل ويؤكد عليها فقد كان التسامح* عنده معيار للكنيسة الحقة، محركاته اللاعنف، التقوى والفضيلة في شكل علاقة أفقية لا يمكن تجاهلها والتسامح بكل أبعاده الواقعية من مساواة وحرية واستقرار هدف عام سعى لوك إلى الحقيقة خاصة فيما يتعلق بحق العبادة[4].

دعى لوك من خلال مشروعه التسامحي نفس دعوته السياسية، و ذلك بالفصل بين السلطة السياسية والدينية وبتالي القطيعة بين ماهو بائن وروحي، فجعل لكل سلطة

---

(1) زوخي إسماعيل، المرجع نفسه، ص:205.

(2) شوفاليه جان جاك، تاريخ الفكر السياسي، تر: محمد عرب ما صيلا، مؤسسة الجامعة للدراسات والنشر بيروت، ط(4)، د(ت)، ص:386.

(3) لوك جون، الحكومة المدنية، تر: محمود شوقي الكيال، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، مصر، د(ط)، د(ت) ص:111،112.

* لغة أخلاقية تؤمن بالاختلاف والتعددية وهو مطلب إنساني نبيل دعت له كافة الأديان.

(4) لوك جون، رسالة في التسامح، تر:عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د(ط)، 1988، ص:20.

مجالها الخاص فكانت الكنيسة –السلطة الروحية – لها أولويات الشعائر الدينية وسبل العبادة بعيدا عن التعصب والشهوة، أما السلطة المدنية –السياسية- فهي سلطة اللاقوة واللااستبداد وهنا نرجع إلى الليبرالية عند لوك وفصلت بين السلطتين مع ضرورة التزام كل سلطة بحدود سلطاتها والغاية هنا هي سعادة الفرد ونجاته (غاية براغماتية)[1].

ومن خلال فكرة التسامح نجد لوك يؤكد دائما على حرية الضمير وهذا ما أدرجه في الدليل الأخلاقي وبتالي لا مجال للمساومة في الدين كما يرى بضرورة حرية الرأي والتفكير ولعل هذا أهم ما دعت إلية التجريبية عامة والانجليزية خاصة من خلال دعوتها الصريحة بالحرية والفردية والإنسانية وبالتالي الإجرائية والنجاح[2].

و لما كانت نظريات لوك السياسية والأخلاقية تلخيصا لما كان يمارس بالفعل في انجلترا في ذلك الوقت، لذلك لم يتوقع أن أحدثت في انجلترا تقلبات ضخمة، أما في أمريكا فقد كان الأمر على خلاف ذلك إذ أدت الليبرالية والتجريبية إلى تغيرات ضخمة وثورية، فأصبح الليبرالية المثل الأعلى القومي الذي صانه الدستور الأمريكي فلوك في الفلسفة واحد ممن بدءوا المذهب التجريبي الحديث وهو اتجاه فكري طوره بعد ذلك باركلي وهيوم ثم بنتام وجون ستوارت مل وبهذا يكون لوك قد فتح باب البحث على لاحقيه[3].

ثالثا: جورج بركلي George Berkeley (1685،1753)

وسط تيار التجريبية الحسية ولد بركلي وعاش وتلك التيارات الفلسفية المتباينة وعاصر أشهر الفلاسفة الذين كان لهم عظيم الأثر في تاريخ الفكر الفلسفي وعموما ومن ناحية الترتيب الزمني للأحداث والتتابع الفلسفي يكون بركلي شخصية انتقالية بين الجيل

(1) لوك جون، رسالة في التسامح، تر:عبد الرحمن بدوي، المرجع نفسه، ص:31.

(2) louis Andre lercay ,locke , presses universitaires de France 108, Boulevard saint-Germain, paris ,s(é), 1964 , p.54.

(3) راسل برتراند، حكمة الغرب، ج2، ص:88،89.

* نسبة إلى الكنيسة الأنجليكانية وهي الكنيسة الرسمية بانجلترا أسسها الملك هنري الثامن سنة 1534 لما قطع علاقاته مع كنيسة روما.

الفلسفي التالي لديكارت وبين هيوم وكانط وقد عاش بركلي ما يقرب 68 سنة قضاها في خدمة الدين والكنيسة. حيث كان قس أنجليكاني* والتأليف من أشهر مؤلفاته " مقالة جديدة نحو نظرية جديدة في الإبصار" سنة 1709 [1].

عرف بركلي بنزعته التجريبية المثالية او اللامادية كمذهب جديد، كان مشروعه في الأساس تنقية فلسفة لوك من العناصر المنافية للتجريبية، حيث أخذ عن لوك مبادئه التجريبية في المعرفة، ليتوصل فيما بعد الى نتائج تختلف عن النتائج التي توصل إليها لوك، فوضع أساسا لفلسفة تقول بأن " الوجود إدراك" أي أن المعرفة الحقة هي المقصورة على ما يبدو للشعور بأعراض حسية، مالا يبدوا محسوسا فهو وهم محض. وتأسيسا على ذلك يرفض باركلي نظرية التجريد القائلة بالمعاني المجردة[2].

وتبدو معارضته للوك هنا ظاهرة لأن الأخير أنكر موضوعية الكيفيات الثانوية، و قال بالكيفيات الأولية المترجمة عن الامتداد أو المادة، وهنا يتساءل باركلي: ما الذي يخولنا الحق في الإيمان بوجودها وما الفائدة في استباق المادة مع الإقرار بأننا نجهل ماهيتها؟ وبهذا فلا يوجد سوى الأرواح، فاللامادية هي الحق ولهذا أنكر موضوعية الأنواع والأجناس وامن بالمعاني المجردة في الذهن، لكنه ردها إلى المعارف الجزئية وليس إلى المعاني المجردة[3].

إن إنكار المادة عند بركلي لا يعني إنكار الأشياء لأن العقل يدرك المحسوسات في أماكن تواجدها فالمعرفة عنده تستند إلى الأحاسيس باستثناء وجود الله والنفس فالعقل الالهي هو الذي يعرض علينا المعاني ويعرض بذلك نظامها ودوام الله يعني دوام اعتقادنا بالأشياء وبهذا وضع بركلي مصادرتين لنسقه الفلسفي، الأولى أن الله موجود

(1) شاخت رتشارد، رواد الفلسفة الحديثة، تر: أحمد حمدي محمود، مكتبة الأسرة، مصر،د(ط)، د(ت)، ص:163.

(2) إبراهيم عبد الله، المرجع نفسه، ص:69.

(3) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، د(ط)، 1986، ص:162.

ويبث سلطانه لكل شيء والثانية أن المادة وجود انفعالي لا فاعلي ومن ثم لا تكون المادة علة لأي شيء[1].

والوجود الذهني أي الأفكار التي توجد في العقل شيء والوجود الواقعي المادي الملموس شيء أخر، و إذا سمح بالتجريد في نطاق الأفكار فانه لا يسمح به في مجال الموجودات الواقعية والعالم الخارجي، لهذا أنكر بركلي كما قلنا الأفكار المجردة بنوعيها تلك التي توجد في الذهن وتلك التي تتعلق بالأشياء ذاتها[2].

لا يكتفي بركلي بإنكار الأفكار المجردة، بل يرفض أيضا كل تميز قال به لوك بين الموضوعات والأفكار، كذلك نظرية المعرفة التمثيلية المترتبة عليه إذ كيف يمكن للتجريبية المتسقة أن تذهب من جهة إلى أن كل تجربة إنما هي تجربة لأفكار إحساس وانعكاس؟ وتؤكد (التجريبية) من جهة أخرى أن الأفكار تطابق موضوعات ليست هي ذاتها معروفة[3].

حيث وضع بركلي ما وضعه لمنع الشك والإلحاد والابتعاد عن الإيمان والدفاع عن الحس المشترك وبالتالي إثبات حقيقة المعرفة الإنسانية وكمالها، بالإضافة إلى محاربة الشكاك والملحدين والإتيان بمنهج يساير الفهم وييسر فهم العلوم ويزيد نفعها ويساعد على عرضها عرضا موجزا [4].

و يمكن استخلاص حقائق هامة في فلسفة بركلي التجريبية المثالية (اللامادية) إلا أنه لا يؤمن إلا بالحواس كوسيلة للمعرفة وهي بذلك تخالف جميع المثاليات العقلية التي اتفقت في أنها تسند إلى العقل دورا رئيسيا يقوم على تنظيم الآثار الحسية، لا بل هي تخالف التيار التجريبي نفسه(لكن هذا لا يعني عدم تجريبيتها) فلوك يفرق بين العقل والحس وهيوم يفرق بين الانطباعات الحسية والأفكار. أما بركلي فلا يشير إلى

(1) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص:303.

(2) المرجع نفسه، ص:305.

(3) راسل برتراند، حكمة الغرب، ج2، ص:94.

(4) إبراهيم مصطفى إبراهيم، المرجع نفسه، ص:303.

الفكر أو التفكير العقلي. إلا في حدود ضيقة جدا، فالفكر لا يلعب أي دور في معرفة الإنسان بالعالم الخارجي[1].

كما أن وجود الشيء مرهون بإدراكه والإنسان لا يعرف العالم إلا بقدر ما يدركه وجوهر العالم هو ما يدرك فقط (الوجود إدراك)، و الأشياء عند بركلي لا تتمتع بشيء إلا من حيث أنها قائمة في عقل الله، أو العقل اللامتناهي، و هذه الفكرة تمثل الاساس في فلسفة بركلي، وإنكار باركلي للعقل واقتصاره على الإدراك الحسي كان مقصودا – لأنه كان يخشى العقل وتداعياته من خلال التفكير الحر – والأفكار عند باركلي هي لغة رمزية يتحدث بها الله مع الناس[2].

وبهذا يكون باركلي قد قدم لنا نسق فلسفي محوره الله ومركزه الإدراك داخل تيار عام هو ا لتجريبية .

رابعا : دافيد هيوم (1716-1776) David Hume

ينظر النقاد ومؤرخو تاريخ الفكر الفلسفي وكتاب الحضارة وأساتذة الفلسفة إلى دافيد هيوم باعتباره قمة الفلسفة التجريبية الانجليزية حيث دفع بموقف كل من جون لوك وجورج باركلي إلى أخر نتائجه المنطقية، كما خلص الموقف التجريبي مما رأى فيه أنها عناصر غير تجريبية ، وقد أفنى نفسه في محراب الفكر في شكل دينامكية عطاء من خلال جملة من المؤلفات أهمها "رسالة في الطبيعة الإنسانية" سنة 1738 و" بحث بتعلق بالفهم الإنساني" سنة 1748 وغيرها [3]

اعتنق هيوم الاتجاه التجريبي الذي يرد كل معارفنا إلى التجربة ، مما جعله يعتقد أنه لا توجد معرفة يقينية (الشك) فعمق بذلك البعد التجريبي في فلسفة لوك مؤكدا أنه يستحيل على الإنسان أن يهتدي إلى وصف العالم الواقعي بالتفكير الاستنباطي وحده،

(1) إبراهيم عبد الله، المركزية الغربية، ص:70.

(2) المرجع نفسه، ص:70.

(3) محمود زكي نجيب، سلسلة نوابع الفكر الغربي"ديفيد هيوم"،دارالمعارف،القاهرة،د(ط)، 1958 ص:206،207.

فكل ما يتصل بالواقع لا يدخل في الإدراك إلا عن طريق الحواس، فالخبرة الحسية هي المصدر الوحيد الذي يستقي منه الإنسان علمه بالعالم الخارجي، لأن الأفكار كلها ليست إلا صورا مما كانت الحواس قد انطبعت فيه انطباعا مباشرا[1].

فيستحيل التفكير في شيء إن لم يكن قد سبق الإحساس به بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنية، فكانت هناك فكرة مركبة أمكن تعريفها بسلسلة من الألفاظ والعبارات فان ذلك معناه محاولة إحصاء ما فيها من أفكار بسيطة، بحيث يكون لكل فكرة بسيطة منها الانطباع الحسي الذي يقابلها باعتباره مصدرا لها. فالفكرة المركبة تتضح وضوحا تاما وكاملا ومحددا إذا حللت إلى الأفكار البسيطة التي ركبت منها ووراء كل فكرة بسيطة مصدر حسي وبهذا رد هيوم الفكرة المركبة إلى مقدماتها الحسية البسيطة[2].

و قد ذهب هيوم بهذا نفس ما ذهب إليه لوك وهو أن الخبرة الحسية مصدر معرفتنا الوحيد، و من ثم لا وجود لأفكار فطرية وأن معرفتنا محدودة بحدود حواسنا وأفكارنا، و أنه ما دامت معرفتنا محدودة بحدود الحواس والأفكار فلا ينبغي لنا أن نقرر أي شيء يختص بما وراء الحواس والأفكار مثل تقرير جوهر مادي أو روحي أو غير ذلك وبالتالي فان كل ادراكات العقل الإنساني ترجع إلى حسين متمايزين هما الانطباعات والأفكار،وكل الافكار ماهي إلا نسخ للانطباعات الحسية[3].

ووافق هيوم بركلي في مقولته التي تقول لا يوجد إلا الذوات المدركة ورفضه بذلك للأفكار المجردة وللجوهر المادي، فهيوم يسلم بوجود مدركات، و لكن كيف نعرف

(1) إبراهيم عبد الله، المرجع نفسه، ص:68.

(2) المرجع نفسه، ص:68.

(3) راسل برتراند، حكمة الغرب، ج2، ص:99.

الذات المدركة إذا لم نكن ندركها؟ لذلك فالذات المدركة هي نفسها مدركة وبالتالي لا وجود لجوهر سواء كان ماديا أو معنويا وإنما هو مجموعة من الظواهر المدركة[1]

و هيوم بالرغم من تجربته فانه لا ينكر وجود العقل وأهميته في نظرية المعرفة، و لكنه يضعه في سياق نظريته التجريبية (الحسية)، إذ لا شيء إلا ويخضع للملاحظة والتجربة حتى العقل ذاته ولتبيان معاني التجربة وفائدتها نجد " كولن ويلسون" يقول " بأن العقل يقود إلى طريق مسدود ولكن إذا كان هناك حل فانه يجب أن يوجد، لا في العقل وإنما في تفحص التجربة" وبالتالي هيوم هنا يعطي أولوية للعقل العملي دون العقل النظري[2].

بالنسبة إلى الأخلاق من موقعها من فلسفة هيوم التجريبية نجده يرى أنها لا يمكن أن تقوم على مبادئ مطلقة عن طريق الحدس أو البرهان كما هو الحال بالنسبة للرياضيات على سبيل المثال فالأخلاق علم تجريبي وكل ما هو تجريبي يرتبط ارتباطا وثيقا بعلم النفس ويقوم على أساس المشاركة أو التعاطف بين بني البشر لتحقيق أكبر قدر ممكن من المنافع أي ما يهم مصلحتهم المشتركة[3].

و من هنا نلاحظ الطابع العملي والتجريبي في فلسفة الأخلاق عند هيوم كما تظهر كذلك نزعته البراغماتية والاجتماعية والإنسانية من خلال فكرة المنفعة التي يرى بضرورتها لجميع الناس، فالأفعال الخلقية لا يبررها العقل بل العمل في إطار الشعور والعاطفة وبهذا يكون هيوم قد قدم نسق فلسفي أساسه الإدراك الحسي مع تحفظ شديد (الشك) ليضع التجريبية بذلك بعد بيكن ولوك وبركلي موضوعا فاصلا خلال فترتها الكلاسيكية .

(1) ملاح أحمد، المختصر في تاريخ الفلسفة الغربية " من طاليس إلى باشلار"، رياض العلوم للنشر والتوزيع الجزائر، ط(1)، 2006، ص:104.

(2) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص:332.

(3) المرجع نفسه، ص:340.

و التجريبية الانجليزية وكغيرها من الفلسفات لم تخل من النقد خاصة مع لوك وبركلي وهيوم. ففي اهتمامها العام بالحواس والتجربة وما يأتي عن طريقهما من معارف، و بالرغم من أنها لم تنكر دور العقل وفي ظل حديثها عن الخبرة إلا أن هذا الأمل خاصة فيما يتعلق بالخبرة ظل من نوافل الكلام[1].

فبالنسبة لجون لوك وبالرغم من جل اثراءاته في مجال المعرفة والتجريب إلا أنه تعثر بعض الأحيان فوجد نفسه يحوم حول الميتافيزيقا وذلك في تبنيه لفكرة الجوهر بكل ما فيها من غموض فجعل بذلك من تجربته موضع شبه خاصة في قوله بالجواهر الروحية والمادية في إطار تفسيره للصفات الأولية والثانوية، و لو أن لوك كان مؤمنا بالعقل لخلص نفسه من هذا الإشكال[2].

كما أنه في انتقاله من الجوهر بصفة عامة إلى الجواهر الجزئية فهذا لا يتماشى والمبدأ العام للتجريبية (الانتقال من الجزء إلى الكل) واستعمل التجريد على رأي "أوكدنور" " فيعرض لكيفية تكوين الأفكار عن الجواهر الجزئية حتى يصل إلى فكرته عن الجوهر بصفة عامة عن طريق التجريد" [3].

كما أن لوك من خلال فكرة التسامح ابتعد نوعا ما بل كليا عن مطلبه الإنساني فقد أخذ يقصي هذا وذاك من مشروعه التسامحي بل أكثر من ذلك قد أقصى المسيحيين أنفسهم "الكاثوليك" كما أنه أقصى المسلمين كذلك من تسامحه، في حين لو ذهبنا إلى المسلمين لوجدنا التسامح موجود بكل معانيه وهذا ما يشير إليه التعايش المادي والفكري بين المسلمين وأهل الذمة والنصارى واليهود في مصر والعراق والشام وبهذا لم نجد تسامح لوك يعم بالشكل الذي أراده[4].

(1) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص:351.

(2) عبد المعطي محمد علي، الفلسفة العامة، دار المعرفة الجامعية، مصر، د(ط)، 2001، ص:462.

(3) المرجع نفسه، ص:464.

(4) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص:297.

كما أن لوك من خلال تجربته خاصة في شقها السياسي وذلك دعوته للسلم والديمقراطية والإنسانية والفردية لم يكن واسع الأفاق لدرجة أنه كان سفسطائي بلون جديد(من خلال الاستثناءات التي قدمها في التسامح)، في حين نجد كانط في كتابه مشروع السلم الدائم أكثر واقعية وأكثر عالمية وإنسانية وبالتالي برر متطلبات مشروعه على عكس لوك[1].

بالإضافة إلى النقد الذي وجهه إليه بركلي من خلال نقد فكرة الأفكار المجردة وكذا فكرة الجوهر المادي، إلا أن بركلي هو بدوره لم يسلم من النقد أولا من خلال نزعته اللامادية والتي هي تلفيقية وتبتعد بذلك عن التجريبية التي ترى أن عالم الأشياء منفصل عن الذات بالإضافة إذا سلمنا أن الإحساسات والأفكار طبعها الله في عقولنا فما هو سبب الخطأ(الخطيئة المسيحية)[2].

وبالنسبة إلى هيوم وفي محاولة تقديمه فلسفة تجريبية خالصة قد أفرط في اتجاهه التجريبي كما أفرط في ثقته في نفسه وبقدراته العقلية حتى سلب الإنسانية تراثها الفكري وأعادها إلى غايات الشك المطلق، و لم يبق للإنسانية شيء تعتقد به لا في مجال المعرفة ولا في مجال الأخلاق ولا الدين ولا سائر المجالات[3].

كما أخطأ كل من بركلي وهيوم في إنكارهم لوجود الأفكار المجردة التي لا يستغني عنها الإنسان في حياته سواء العملية أو العلمية لما لها من أهمية ، صحيح أنها لا توجد في الواقع بنفسها ولكنها توجد كرموز لغوية نقيس على أساسها معارفنا الجزئية، فالإنسان المطلق لا وجود له ولكننا نقيس عليه وجود سقراط، محمد وغيرها من الأسماء الجزئية[4].

(1) كانط ايمانويل، مشروع للسلام الدائم، تر: عثمان أمين، مكتبة الأسرة، القاهرة، د(ط)، 2000، ص:10،51.

(2) إبراهيم مصطفى إبراهيم، المرجع نفسه، ص:305.

(3) المرجع نفسه، ص:351.

(4) إبراهيم مصطفى إبراهيم ، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص:352.

و بالنسبة إلى فكرة الخبرة وتصورهم السلبي لها، اذ جعلوا منها منحصرة بمستوى جزئي العرضي والمحتمل وأنها مهما بلغت فلا يمكنها أن تصبح قوة أو سلطة بحيث يمكنها من جهة أصلها ومحتواها أن تكون كلية ضرورية ويقينية وهذا ما آخذهم عليه فلاسفة الخبرة بحكم الاحتكام إلى التجربة فيما بعد خاصة جون ديوي[1].

انه وبالرغم من جملة الانتقادات الموجهة إلى هاته الفلسفة أو هؤلاء الفلاسفة والتي لا تتعدى أن تكون في حقيقة الأمر سوى نقاط ايجابية تضاف إلى ايجابيات الفلسفة التجريبية الانجليزية التي عبرت عن نفسها وعن مقاصدها العامة في إطار التجريب والبحث العلمي والإنساني لتكون بذلك بوابة فلاسفة القرون اللاحقة.

و في إطار البحث في الفلسفة التجريبية في القرنين السابع والثامن عشر تظهر لنا تلك النزعة العملية والدور الذي لعبته من خلال ما نادت به من شعارات واقعية وتجريبية وإجرائية (براغماتية) والإنسانية على يد الفيلسوف ومؤسس علم الاقتصاد الحديث ادم سميث وبالتالي كيف عبرت فلسفة سميث العملية عن مطالب التجريبية ومتداعياتها على الصعيدين الانجليزي والأنجلوساكسوني؟

خامسا: ادم سميث (1723- 1790) Adam smith

يعد سميث من نخبة الفلاسفة الانجليز الذين اهتموا بالعمل والتجديد، و هذا ما أبانه من خلال كتابيه " نظرية العواطف الأخلاقية" سنة 1759، و"بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم" سنة 1776، و تقوم شهرته الآن على التأسيس الذي أرساه لعلم الاقتصاد بل أكثر من ذلك مشاركته في انحراف السياسة نحو علم الاقتصاد من خلال الرأسمالية الليبرالية وبيانه الشهير لمبادئ العمل الحر، هذا الأخير الذي أكسبه الحق في أن يعرف بوصفه مهندسا معماريا للنظام الحالي في المجتمع[2].

(2) جديدي محمد، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا"، ص:52.

(2) كروسي جوزيف وليو شتراوس، تاريخ الفلسفة السياسية " من جون لوك إلى هيدجر"، ج2، تر: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط(1)، 2005، ص:239.

و مع ظهور مقومات النظام الليبرالي- الذي بدأ خلال الثورة الصناعية – وازدياد الحاجة إلى المهارات اليدوية والخبرات، كان لابد من ظهور فلسفة عملية تنظم وتؤطر الاقتصاد البريطاني لتفتح بذلك أبواب الحرية في الجانب الاقتصادي خاصة في الصناعة والتجارة وهذا هو الأساس مع سميث ومبادئه في العمل الحر وتوجه نحو ثروات أوفر وأسهل من خلال وضعه لأسس علم الاقتصاد داخل النظام الرأسمالي[1].

و بهذا وجد هدف سميث وهو الحياة الحرة، و المعقولة والمريحة والمتسامحة أمله من جراء علم الاقتصاد وهذا ما عبر عنه من خلال كتابه " ثروة الأمم" فسميث يرى أن لكل ساكن مصلحة خالدة في زيادة إنتاجه الخاص، و يفعل كل شيء ممكن لكي يحقق ذلك إذا ترك حرا ومن هنا جاء شعاره " دعه يعمل دعه يمر" ومن ثم وجب على الجميع أن يقبل هذه الحرية وهم يزيدون الإنتاج المتراكم معا ويراقب كل واحد الأخر عن طريق المنافسة ومن هنا جاء هجومه الشهير على الرأسمالية التجارية – من خلال مذهب التفضيل المفسد لمصلحة التاجر- [2].

و ذلك أن مصالح الفرد الخاصة من أجل تحسين وضعه ستؤدي إلى توسيع الرخاء الاجتماعي بشكل عام خاصة إذا ما أتيح لهذه القوى أن تنطلق دون معوقات فسميث يرفض الإجراءات الموجهة في الاقتصاد ويترك ذلك إلى الطبيعة بصورة آلية بأن تحول المصلحة الذاتية الفردية إلى خير مشترك للجميع (مصلحة جماعية)[3].

يرى سميث أن الحرية واجبة من الناحية الإنسانية، حيث يعطي حرية للتفكير والرأسمالية "الليبرالية" تتصور الحرية بأنها شرط أساسي لكل وجود إنساني من حيث أنه موجود فرد أخلاقي ومن حيث أنها الأساس لإنسانيته، و الحرية عند سميث نفسها التي نادى بها لوك من خلال مشروعه السياسي والتوجه التجريبي وبالتالي يكون سميث هو بدوره يؤكد على الجوانب التجريبية والعملية في الاقتصاد بل تعداها في ربطها

(1) لالاند أندريه، المرجع نفسه، ص:145،146.

(2) كروسي جوزيف وليو شتراوس، المرجع نفسه، ص:258.

(3) كروسي جوزيف وليو شتراو، المرجع نفسه، ص:258.

بالسياسة وبالتالي تحقيق الحياة السلمية والمزدهرة بالنسبة للبشرية التي تعود بالأساس إلى الاقتصاد والسياسة[1].

و لذلك نجد سميث يؤمن بالعلم والتقدم والاكتشافات وما مدى انعكاس كل هذا على الحياة، خاصة وأنه هو بنفسه وضع الأسس الحقيقية للاقتصاد من خلال تأسيسه لعلم الاقتصاد ليستطيع أن يثبت حكمته خاصة من خلال الرأسمالية الليبرالية فهو فعل تجربته داخل توجهه العملي والعلمي ليكون مرجعية هامة لكل نداءات الحرية والعمل والإجرائية لا في بريطانيا فحسب بل في جميع أنحاء العالم ولعل هذا هو المطلب الرئيسي لكل عمل فلسفي هادف(التجريبية).

II- التجريبية الانجليزية المحدثة

لقد بلغت الفلسفة التجريبية في مرحلتها الكلاسيكية قمة نموها النظري، كما حافظت على مسارها المستقيم والمتصل، ليبلغ المذهب التجريبي أوجه في فلسفة هيوم وعندئذ ينحرف وينقطع- نزعته الشكية حيث لم يخلف أي تراث من التعاليم الواضحة والمنظمة- ولا يتحرك إلى الأمام ثانية حتى يتلقى دفعة جديدة من الأفكار التي عبر عنها المذهب التجريبي الحديث في القرن التاسع عشر.

(1) المرجع نفسه، ص:261.

خاصة وأن القرن التاسع عشر استهل بآمال عالية في بعض الميادين ليكون قرن الابتكار والبناء والتجديد، الأمر الذي جعل المذهب التجريبي الحديث بدوره مذهب في التجديد(أفكار جديدة) ليكمل المشوار الذي بدأه لوك وأتباعه، فينظم بذلك التيار التجريبي على شاكلة بعث جديد يحافظ على التراث بمساهمة فكرية جديدة وهذا ما عبر عنه كل من بنتام وجون ستوارت مل.

و عليه: هل كانت التجريبية الحديثة في القرن التاسع عشر مجرد مرحلة تابعة للمذهب التجريبي الكلاسيكي في انجلترا، أم أنها تعدت تلك التبعية وحققت صور التجديد التي لطالما دعى إليها المذهب التجريبي؟

أولا: جريمي بنتام (1748-1832) Bentham Jeremy

بالرغم من أن جريمي بنتام مرتبط ارتباطا وثيقا بالقرن الثامن عشر، سواء من حيث تعليمه العقلي ونشاطه الإنتاجي، إلا أنه وفيما يتعلق بتأثره الفلسفي ينتمي إلى القرن التاسع عشر، فهو ابن مدينة لندن، تلقى تعليم وافر كما تأثر بمبدأ "السعادة" ومنذ ذلك الحين كرس بنتام حياته لإقامة أساس علمي للتشريع والقضاء وجعل مهمته دحض أساس القانون الطبيعي والسابقة التاريخية من أشهر مؤلفاته " مبادئ الأخلاق والتشريع"[1].

و بنتام يعد بحق الممثل الأول لما نسميه بالمذهب التجريبي المحدث، وينحصر نشاطه في المحل الأول في ميدان الفلسفة العملية وذلك أولا في الأخلاق، ثم في جميع مجالات الدراسة المبنية على الأخلاق، كالسياسة والإصلاح الاجتماعي والتشريع والفقه القانوني (لاسيما القانون الجنائي) والقانون الدولي والتعليم فتجريبيته تجريبية تجديد وفقا لمبدأ العمل[2].

(1)عباس فيصل، المرجع نفسه، ص: 164.

(2) متس رودلف، الفلسفة الانجليزية في مائة عام، ج1، تر: فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط(1) 2009، ص:45.

و قد اكتسب منه الفكر الانجليزي في القرن التاسع عشر من الخصوبة والعمق أكثر مما اكتسب من أي مفكر آخر وتأثر به بقوة تفوق تأثره بأي شخص غيره وهو هنا يواصل تلك الآراء الديمقراطية المتحررة والنفعية التي بدأها لوك كما كان مذهبه واسع التأثير من خلال نتائجه العملية والتجريبية الهامة، من خلال فكره المتحرر وروحه المتحررة، حيث لم يلن أمام أية سلطة أو أي تراث فحرر نفسه من جميع قيود الدولة والكنيسة والدستور والقانون التقليدي وأخطاء التراث[1].

فبنتام أسس لفلسفة عملية هدفها تغير النظام القائم للأشياء وتحسينه ويقدم بنتام نظريته الأساسية في المنفعة في كتابه " مقدمة لأصول الأخلاق والتشريع" بحيث يرى أن ما يحفز الإنسان على العمل دائما هو الرغبة لتحصيل لذاته الخاصة وتجنب الألم فلقد أخضعت الطبيعة الإنسان لحكم سيدين هما: اللذة والألم، إنهما يتحكمان فينا تحكما يشمل كل ما نفعله وكل ما نقوله وكل ما نفكر فيه وبالتالي وجب على الإنسان أن يحب ما يرد فيه نفعه عن طريق العمل أو بمعنى أصح التجريب[2].

و في هذا الصدد يقدم بنتام سبعة اعتبارات يجب وضعها لقياس الآلام واللذات وهي شدة اللذة أو الألم ومدتها ودرجة يقينها وقربها، و خصوبتها وخلوصها ومداها ويرفض بنتام التقاليد والسلطة الدينية والحدس الشخصي للحقيقة الخلقية والقواعد التي يسلم بها هي قواعد القانون، و هو يخضع هذه القواعد للاختبار بمقياس المنفعة وهذا يدل على جانب الخبرة أو التجربة في فلسفة بنتام المنفعية أو التجريبية[3].

وعموما فقد أخذ بنتام مذهبه في المنفعة من هيوم من خلال قراءته للمجلد الثالث من كتاب هيوم "بحث في الطبيعة البشرية " ، وكما يقول بنتام ذاته، فقد ارتفعت الغشاوة عن عينه عندما اكتشف لأول مرة الأهمية الكبرى لفكرة المنفعة في السلوك البشري وهذا يعد بمثابة خدمة قدمها بنتام للبشرية وذلك من خلال مادته التجريبية حيث لا يكاد

(1) المرجع نفسه، ص:45.

(2) عباس فيصل، المرجع نفسه، ص:164.

(3)عباس فيصل، المرجع نفسه، ص:165.

المرء يجد مثلا لأي مذهب فكري آخر قام واضعه بتنظيم مبدأ واحد فيه ودعمه بهذا الحشد من التجارب كما يجد لدى بنتام[1].

كما أن الكمية الضخمة من المادة التجريبية التي أدرجها تحت مبدئه النظري الرئيسي، لم تكن هي وحدها التي تكتسب من التجربة، بل لقد كان المبدأ ذاته مكتسبا من التجربة، ذلك من خلال توجهها للسلوك البشري الذي يحدده ويملؤه السعي في اكتساب اللذة وتجنب الآلام ولعل هذا يدل على التجربة الإنسانية المعاشة أي مدى مخاطبة السلوك للواقع(الخبرة)[2].

فبنتام يرى من خلال فلسفته النفعية في ظل امتدادها التجريبي الإنساني والاجتماعي أي منفعة المجموع شاملة للمنافع الفردية ومن ثمة مقدمة عليها، و الغاية التي يتعين السعي لتحقيقها هي "أكبر سعادة لأكبر عدد"، وهذا هو العلم الجديد الذي جاء به بنتام في إطار التجريبية ويسمى بالحساب الخلقي لإيجاد الاختبار بين اللذات عن طريق الاعتبارات التي قدمها لقياس اللذة فهو يطمح إلى تحويل علم الأخلاق وعلم التشريع إلى علمين مضبوطين كالرياضيات[3] .

قدم بنتام من خلال فلسفته النفعية حساب كمي للذات من خلال مبدئه التجريبي العام، كما أقر بمبدأ التداعي ومبدأ أعظم سعادة وقال كذلك بالتداعي بين الأفكار واللغة وكذلك التداعي بين الأفكار والأفكار وهو يهدف بهذا المبدأ إلى تفسير حتمي للأحداث العقلية وبهذا تظهر تلك الآلية الفكرية عند بنتام، وهي مثيلة لنظرية الأحداث عن الفعل المنعكس الشرطي: المؤسسة على تجارب "بافلوف"، والفارق الهام الوحيد هو أن الفعل

(1) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:47.

(2) المرجع نفسه، ص:47.

(3) راسل برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية ، ج3، تر: محمد فتحي الشنيطي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب،مصر د(ط)، 1977، ص:414.

المنعكس الشرطي البافلوفي فعل فسيولوجي بينما تداعي الأفكار كان تداعيا عقليا خالصا[1].

كما كانت الحتمية هامة في علم النفس عند بنتام، لأنه كان يرغب في إقامة مجموعة قوانين –وعلى نحو أعم، نسق اجتماعي يجعل الناس بطريقة آلية فضلاء وعند هذه النقطة صار مبدأه الثاني، مبدأ السعادة العظمى، ضروريا من أجل تعريف الفضيلة ولعل فضل بنتام في نظريته النفعية ليس في إقامة هذه النظرية، بل في تطبيقه لها تطبيقا نشيطا على مشكلات عملية متنوعة[2].

بهذا يكون بنتام من خلال بنائه الفلسفي القائم على المنفعة قدم نسقا قوامه المنفعة وفقا لتكميم قياسي للذة داخل العمل الأخلاقي عامة، و قد كان بنتام كسائر التجريبيين محبا للسلام والأمن والتغيير والتجديد فهو يرى أن الحروب والعواصف الأفضل أن نقرأ عنهما، و لكن السلام والهدوء من الأحسن أن نعيش في كنفهما وهذا ما يظهر من خلال تأكيده الدائم على تحقيق أكبر قدر من اللذات(المنفعة)، كما دعى كذلك إلى الديمقراطية الكاملة ودافع عنها[3].

لكن في مقابل ذلك أخفق بنتام وتراجع عن الطابع التجريبي عامة من خلال وضعه لأهداف القانون المدني الأربعة(البقاء، الرخاء، الأمن، و المساواة)، حيث لم يشر إلى الحرية هاته الأخيرة التي كانت مطلب الفكر التجريبي ككل منذ بيكن وحتى هيوم فبنتام كان معجب بالحكام المستبدين، كما قدم ازدراء كبير لنظرية حقوق الإنسان، حيث كانت عنده لغو صرف، و هي لغو يمشي على ساقين طويلتين، و لعل هذا لا يتماشى مع مبدئه العام القائم على المنفعة خاصة وأن الحق يشير للنفع من خلال المطالبة به[4].

(2) راسل برتراند، المرجع نفسه، ص:414.

(2) المرجع نفسه، ص:416.

(3) عباس فيصل، المرجع نفسه،ص:164.

(4) راسل برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، ج3، ص:315.

و ثمة ثغرة واضحة في مذهب بنتام فإذا كان كل إنسان يتبع دائما لذاته الخاصة فكيف نضمن أن يتبع التشريع لذة الجنس البشري عامة؟ فحب بنتام الغريزي للخير كان مبالغا فيه حيث صرف النظر إلى زاوية خاصة وهي إتباع اللذات وفي المقابل نجد أن التشريع لا يحقق ذلك خاصة اليوم. إذ تصبح اللذة أهم ألم للأخر كما أن المنفعة لا تناسب الجميع ولا تتعادل بينهم.

و مع ذلك قدم بنتام في المقابل وصفا للحياة الأخلاقية بأسرها، و منه إلى إقامة التوازن بين اللذة والألم في السلوك البشري، ضف إلى ذلك حساب اللذات وتظهر تجريبيته من خلال تطبيق هذه الأفكار بالرغم من بعض الثغرات على الحياة العلمية تباينا ولا سيما السياسة والإصلاح الاجتماعي، فقد حاول رد مجال السلوك البشري بأسره (الفردي منه والاجتماعي) إلى مبدأ واحد شامل لكل شيء يطبق باتساق صارم و هكذا ارتفعت الأخلاق عنده لأول مرة (ومعها المجالات العملية الأخرى للدراسة) إلى مرتبة العلم الدقيق وأضيفت كالعلم الطبيعي إلى مجال البحث الدقيق[1].

تتوقف عظمة هذه النظرة، والقدرة على تنفيذها علميا، على العزل الجريء لوجه محدود منفصل مع تجاهل مترفع لكل الأوجه الباقية، وهكذا اقتطع بنتام من مجال معقد عديد الأبعاد، سطحا واحدا قدمه بكل مظاهر البحث العلمي الدقيق وتحقق ذلك بجعل مبدأ المنفعة أهم العوامل وإخضاع الحياة الأخلاقية بأسرها لعنصر الكم تماما[2].

هكذا أزيلت عن الأخلاق كل العناصر الكيفية، و كذلك جميع الشروط الميتافيزيقية والدينية وغيرها، بل لقد سعى بنتام إلى الاستغناء عن الأساس النفسي الذي كان باحثوا الأخلاق الانجليز من قبله ومن بعده يرونه ضرورة لا غناء عنها ولهذا قدم بنتام تطبيقا للأخلاق من خلال مبدأ المنفعة هذا الأخير الذي أبان فيه كما قلنا

(1) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:48.

(2) المرجع نفسه، ص:48.

التكميم الأخلاقي وبهذا لا يكون قد خرج عن هذا المذهب التجريبي خاصة والروح الانجليزية التجريبية عامة[1].

و يستمر التيار الرئيسي للتفكير النفعي، بعد بنتام مع جيمس مل James Mill (1773-1836) الذي كان تلميذا شابا وصديقا وحليفا لبنتام، اقتبس تعاليمه وواصلها كأنها عقيدة موروثة، و هو يمثل معبرا بين بنتنام الذي أعاد بناء المذهب التجريبي من جديد(بعد هيوم)، و بين ابنه جون ستورت مل، هكذا كان يحتل أساسا موقع الوسيط وكانت مهمته هي حفظ التراث حتى يسلمه نقيا صافيا إلى ابنه وخليفته العظيم[2].

فقدم إخلاص واضح لتلك الصيغة المشهورة في مذهب المنفعة "تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس" وكل ما فيها من مظاهر للتجريبية والبراغماتية وقد اكتسب علم النفس قوامه عن طريق العودة إلى تعاليم هيوم وهارتلي Hartley (1715-1757) ومن ثم فقد كانت معارضته واضحة للمذهب الحدسي ولقد عاد ثانية إلى تأكيد أهمية الفاعلية الآلية للذهن، وأدخل منهج التشريح النفسي، ومعه الكيمياء النفسية[3].

تصور مل من خلال كتابه تحليل الفكر الإنساني سنة 1829، الفكر كما يتصور الآليون الطبيعة، فهم يقولون أن الطبيعة مؤلفة من ذرات تتألف فتكون الأجسام والفكر عند مل هو بدوره مؤلف من عناصر بسيطة "نقط شعورية" هي الإحساسات والانفعالات الأولية(أي ذرات نفسية) تتألف تبعا لقانون الترابط بالتقارن فتكون سائر الظواهر الفكرية[4].

و هكذا أحيا مل من جديد قانون التداعي أو الترابط بوصفه القانون الأساسي للحياة النفسية، و كذلك النظرة الظاهرية Phénoménaliste في نظرية المعرفة وأعاد

(1) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:49.

(2) المرجع نفسه، ص:52.

(3) المرجع نفسه، ص:53.

(4) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر، ط(5)، د(ت)، ص:334.

من جديد إلى الحياة كل مجموعة الأفكار المنتمية إلى النظرية الفلسفية الكلاسيكية (التجريبية الانجليزية). فدعم مذهبه وحسن منهجه بمواد تجريبية جديدة[1].

طبق مل الذرية الفكرية على الأخلاق والتربية وأراد بذلك أن يجعل الحياة الفكرية خاضعة للآلية، فهو يرى أنه عن طريق الترابط يمكن اكتشاف الأخطاء والتحرر منها وعن طريق الترابط كذلك يمكن أن تحل محل الأخطاء أراء جديدة، فهو بهذا جدد الفكر بروح الفلسفة الانجليزية الكلاسيكية، و تكمل مهمته أو أهميته التاريخية في أنه دفع علم النفس والمذهب النفعي ومعه التجريبية دفعة قوية إلى الأمام ولدت سلسلة طويلة من النتائج خاصة مع جون ستوارت مل[2].

ثانيا: جون ستوارت مل (1812- 1873) John sturat Mill

هو ابن مدينة لندن، تلقى تعليمه في بيته على يد أبيه "جيمس مل" ومع تطور مشواره الحياتي والفكري، عمل مل الأصغر على تطوير أفكار والده من أشهر مؤلفاته "المنطق القياسي والاستقرائي" 1843، " كتاب النفعية" 1861 و"مراجعة فلسفة هاملتون" 1865 و"ثلاث محاولات في الدين" الذي نشر بعد وفاته سنة 1874 [3].

قد بلغ المذهب التجريبي الحديث منتها مع جون ستوارت مل كما بلغت التجريبية الكلاسيكية منتهاها عند هيوم، يعتقد الكثيرون أن مل هو أعظم مفكر انجليزي في القرن التاسع عشر، و لكن أيا كان الأمر، فمن المؤكد أنه كان من أعظم الكتاب الفلسفيين في عصره، و من الملاحظ أنه مثل بيكن وغيره لم يشغل أي منصب تعليمي رسمي ومارس الفلسفة حيث كان أعظم ناطق بلسان الفلسفة في عصره[4].

و قد اعتقد مل في رده على المذهب العقلي أن هذا الأخير هو مذهب حدسي يعني التعويل على الرأي الخاص كيفما كان ويعمل على التكاسل وملاحظة القديم بأن

(1) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:54.

(2) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص:334.

(3) Hutin serge, la philosophie Anglaise et Américaine, p.46.

(4) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:57.

يحسم كل مشكلة بقوله أن العقل يرى كذا، أو يجد نفسه كذا وكذا من المعاني والمبادئ، فعارضه بالمذهب التجريبي القائل بأن الأفكار تأتي من التجربة وأن جميع النسب والعلاقات تفسر بقانون التداعي، كما يرى أن إدراك الظواهر هو ملازم لإدراكها في التجربة[1].

و يمثل مل في تطور الفلسفة الانجليزية،آخر مركب ضخم عرض به المذهب التجريبي فجميع الأفكار الرئيسية في المذهب التجريبي تتجمع لديه في وحدة متسقة إلى أبعد حد ويحدث ذلك، لا على شكل مذهب متناسق منظم بدقة، و إنما بذلك الأسلوب المتحرر الذي يحتل أكبر عدد من مجالات التجربة[2].

يدين المذهب التجريبي لمل بقيام نظريته المنطقية ونموها، أما السابقون عليه فلا تكاد تكون لهم في هذا الميدان جهود تذكر بالرغم من أن هيوم وهوبز ولوك قد وضعوا الأسس، و لكن مل كان أول من رفع البناء، فأخضع هذا المجال بجميع أطرافه لتنظيم دقيق باستثناء بيكن. الذي جعل من الأسس المنطقية للعلوم الدقيقة موضوعا للبحث من خلال الأرجنون الجديد ورفضه للمنطق الأرسطي[3].

و بفضل مل أصبح للاتجاه النفساني في المنطق المكانة العليا طوال سنوات عديدة ولم تنته سيطرته إلا بعد أبحاث هوسرل الحاسمة قرب نهاية القرن التاسع عشر فكل الأبحاث في الأوجه النظرية والمنهجية للعلم تتخذ نقطة بدايتها من مل قبل غيره وهي مدينة له في بدايتها الأولى[4].

وعليه فمل يرى أن القياس منطق عقيم، لأن النتيجة متضمنة في المقدمة الكبرى فلا يمكن اتخاذها منهجا للمعرفة، و عليه فان المنهج الوحيد الخصب والمنتج الذي يمكن الاعتماد عليه في إنتاج المعرفة هو الاستقراء وهو المنهج الجدير بالكشف عن السبب

(1) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص:376.

(2) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:58.

(3) المرجع نفسه، ص:66.

(4) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:67.

حيث يحدد في ماهية السبب في البحث العلمي المتقدم الثابت مضيفا إليه صفة اللامشروط مثال أن الغليان تتقدمه الحرارة، فالحرارة متقدم ثابت لا مشروط حتى يتم الغليان[1].

وليتم اكتشاف هذا المتقدم الثابت و اللامشروط وضع مل طرقا للبحث التجريبي هي في الحقيقة تكملة لألواح بيكن وعددها كالأتي أولا: طريقة الاتفاق Méthode de concordance وتتمثل في اتفاق كل الظروف التي وضعناها لإحداث الحادثة والثانية طريقة الاختلاف Méthode de déférence وتتمثل في اختلاف الظاهرة باختلاف الظروف التي وضعناها[2].

ثالثا التغير التدريجي les variations concomitantes وهو تغير الظاهرة تدريجيا بتغير الظروف شيئا فشيئا، رابعا طريقة البواقي La méthode de résidus وهي الطريقة التي أضافها مل وتتمثل في أن الظروف التي بقيت وبقيت معها الظاهرة فهي سببها الحقيقي[3].

و عموما فان جون ستوارت مل فيلسوف وضعي النزعة يبحث دائما عن القانون الذي يسير الأشياء، و حاول دراسة عملية المعرفة كي تتم داخل النفس فعبر عنها عن طريق قانون نفسي نكتسبه بالعادة والميران، و بفعله تترابط الأفكار فيما بينها فنسمي هذا القانون بالنظرية الترابطية Associationnisme ، و بناء على هذه النظرية فسر مل ظهور الأفكار العامة والمبادئ الأولى، و أما المفاهيم الميتافيزيقية فلا قيمة لها لأن كل ما نعرفه ناجم عن احتكاكنا بالواقع[4].

كما يعد كتاب مل في المنطق بعنوان "مذهب في المنطق النظري والاستقرائي" أدق وأشمل تطبيق لمبادئ المذهب التجريبي في بريطانيا وفيه طرد مل "الأولية"

(1) ملاح أحمد، المرجع نفسه، ص:138.

(2) المرجع نفسه، ص:139.

(3) المرجع نفسه، ص:139.

(4) ملاح أحمد، المرجع نفسه، ص:138.

Apriorisme حيث رفض كما قلنا التسليم بمنطق صوري بحجة أن الفكرلا يكون صحيحات حقا إذا هو غض النظر عن مادة المعرفة، فهو يرى أن القضايا الضرورية قضايا لغوية صرف وأن الاستدلالات التقليدية ظاهرية فحسب وليست حقيقية[1].

و أن القياس باعتباره استدلالا من مقدمات إلى نتائج هو أيضا مجرد استدلال ظاهري وهو هام لتأكيده للمقدمة الكبرى أو الكلية، كما أن الاستنباط الخالص ليس استدلالا حقيقيا، أما الاستقراء، فهو استدلال حقيقي وأن المبادئ الرياضية والبديهيات المنطقية ذاتها ليست إلا الاستقراءات من التجربة[2].

لهذا السبب نجد مل يقول " نحن لا نرى ما يدعو إلى الاعتقاد بإمكان وجود أي موضوع لمعرفتنا، سواء أكانت تجربتنا أو ما يمكن أن يستخلص من تجربتنا بالتمثيل أو بوجود أية فكرة أو شعور أو قوة في الذهن البشري، تحتاج لتبريرها ولظهورها إلى أن ترد إلى أي شيء عدا تجربتنا" وهكذا يؤكد مل على التجريبية في بناءاتها المنطقية وهذا ما دفعه إلى الاعتراف بالاستقراء بلا منازع[3].

من المنطق ونظرية المعرفة هذه التي كانت بدورها استجابة للنظرية التجريبية عند مل في طابعها المنطقي، غير أن مذهبه في المعرفة كان أقل أهمية فلسفية من مذهبه في المنطق، كما عبر مل من خلال فلسفته الأخلاقية عن المذهب التجريبي في إطار فلسفة المنفعة كما بدأها بنتام، و عليه فيما ظهر هذا التعبير، و ما نقاط الجدة فيه؟

لقد بدأ مل من المذهب النفعي الصريح عند بنتام وأبيه جيمس مل، فربط بين نظريته النفسية التي سميت بالترابطية وبين نظريته النفعية، و يعتقد أن سلوك الإنسان إنما يرتبط بالمنفعة، و لعل من أسباب قبوله لمذهب المنفعة هو كون أنه لم يكن

(1) عباس فيصل، موسوعة الفلاسفة، ص:166.

(2) المرجع نفسه، ص:166.

(3) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:68.

من أنصار مذهب اللذة المطلقة ولم يبق "ستوارت مل" على نظرية بنتام في اللذة كما هي بل صححه وأضاف إليه[1].

ذلك أن مل أضاف عاملين لمذهب المنفعة عند بنتام وهما: نوعية اللذة حيث أنه ليست كل اللذات متساوية وبالتالي لا تحقق نفس الاستمتاع وبناء على الذين جربوا اللذات.. من الأحسن أن يكون الانسان سقراطا غاضبا بدل خنزيرا متخوفا وكذلك مراعاة الفائدة العامة، فالسعادة التي هي معيار الخير ليست سعادة الفرد بل سعادة الجميع فبالتضحية والنزاهة يمكن تحقيق سعادة للجميع، و سعادة الجميع معناها سعادة الأفراد فالشعار القائل أسعد قدر ممكن لأكبر عدد ممكن من الناس هو جوهر النظرية النفعية[2].

و يمكن إرجاع أهم النقاط الرئيسية في نظرية مل الأخلاقية من وصفه لمذهب المنفعة في: أن اللذة هي موضوع الرغبة الوحيد لدى الناس والدليل على أن الشيء يكون مرغوبا فيه، هو سعي الناس وارتغابهم تحقيقه فعلا وأن سعادة الفرد أو لذته حير له ومن ثم فاللذة العامة أو السعادة الكلية هي خير الجميع، كما أن الأشياء الأخرى التي يرغبها الناس ما هي إلا وسائل تعيننا على بلوغ السعادة، بالإضافة إلى وجوب اعتبار الكيفية في اللذة لا الكمية فحسب[3].

صحيح أن مل يفاضل بين مشاعر اللذة وعدم اللذة، و أنه كان نفعيا في ذلك بحق غير أنه يدرج في حسابه فروقا كيفية أيضا، إذ لا يقتصر في تقديره لمشاعر اللذة على الكمية فقط، بل يقدرها أيضا تبعا لمدى علم قيمتها، و هكذا فان القيمة الأرفع مرتبة يمكن أن ترجح كفتها على قيمة من مرتبة أدنى، و يمكن أن يعد المرء شخصية أخلاقية أرفع، إذا كانت الأنواع العليا من القيم أوضح ظهورا لديه من الأنواع الدنيا[4].

(1) عباس فيصل، المرجع نفسه، ص:165.

(2) ملاح أحمد، المرجع نفسه، ص:140.

(3) محمد علي عبد المعطي، المرجع نفسه، ص:292.

(4) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:70.

الأمر الذي جعل مل لقي نقدا في هذه النقطة، و ذلك بخروجه عن المذهب الحسي والنزعة التجريبية التي لا تعترف بالكيفية، بالإضافة إلى أن المذهب الحسي يفسر الفضيلة باعتبار أنها الوسيلة لا غاية ويصرف النظر عن المنفعة، في حين نجد مل قد وحد بين الكيفية العليا والمنفعة العامة والفضيلة وجعل منها عملا معقولا مرادا بذاته، كما أن قوله بالمنفعة الذاتية وأثرها على المنفعة الكلية كان خطأ، ذلك أن الذاتي هو الأصل والمعيار في المذهب الحسي(الفردية) وعليه كيف نطلب بإخضاعه للنفع العام[1].

بالإضافة إلى ذلك إن عمل مل في نظرية المعرفة لم يكتشف عن أرض جديدة وإنما حقلا زرعه من جديد، و سبق أن استغله استغلالا كاملا ممثلو التجريبية الكلاسيكيون، الذي انتفع مل من أبحاثهم، و هكذا فان الطابع الغالب عليه في هذا الميدان هو العودة إلى القديم دون تجديد[2].

خاصة وأن الفلسفة التجريبية قد بلغت قمة نموها النظري مع الانجليز في مرحلتها الكلاسيكية، بحيث سار التطور التالي، في هذا الصدد في اتجاه نزولي ولم يقتصر المذهب التجريبي، في فترته الكلاسيكية على إرساء دعائمه الأساسية بل انه قد استنفذ إمكانيته التأملية في جميع المجالات الرئيسية، و لم يكن في استطاعة القرن التاسع عشر أن يحرز أي تقدم هام، ليكون العمل التجريبي الحديث أدنى مستوى منه عند الكلاسيكيين[3].

لكن مع ذلك عملت التجريبية المحدثة على صناعة الفرق والتجديد خاصة في مجالي المنطق والأخلاق من خلال مذهب المنفعة الذي غدى مرجعية هامة في المبنى العام خاصة البراغماتية.

(1) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص:349.

(2) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:70.

(3) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:43.

الشيء الجديد في مذهب المنفعة، أنه استبدل اللذة بالمنفعة خاصة مع مل كما أنه لم يعد يبحث فيما يحقق سعادة الفرد الأنانية، و إنما سعادة أكبر قدر من الناس من خلال تقديم نوع من الإصلاح الاجتماعي وفقا لغايات نفعية، فطبقت المنفعة على النظريات التي ترى أن الأفعال لا تكون صالحة أو طالحة في حد ذاتها بل في النتائج والفائدة التي يمكن أن تنجم عنها، و هذا في إطار المنهج التجريبي[1].

و عموما حققت التجريبية المحدثة كما خلقت قيم ايجابية جديدة هامة، و تتمثل في إحراز تقدم في تمييز المشكلات وتعريفها، و في تحسين مناهج البحث وفي إحداث توسيع وإثراء ضخم في المادة التجريبية، و فتح ميادين جديدة للبحث، و نظمت التجربة ورتبتها وصنفتها وبوبتها وجمعت بذلك مجموعة ضخمة من الموارد الجديدة[2].

كما قامت بإعطاء الأولوية للفعل من خلال تحويل نظرية المعرفة في علم النفس والمنطق إلى مناهج البحث في إطار الكم والاتساع فأدت بذلك خدمة ضخمة في استيعاب المعلومات الجديدة والسيطرة على مجالات البحث الجديدة، خاصة في ظهور نظام محكم للمنطق التجريبي على حين أن الفترة الكلاسيكية لم تنتج إلا اقتراحات قليلة تقترن بنظرية عامة في العلم[3].

هكذا قدمت التجريبية المحدثة الجديد، كما أنها حاولت بذلك المحافظة على الموروث التجريبي الكلاسيكي. فلم تكن قد تابعة له، بقدر ما كانت مكملة ومجددة في محاولة لإعادة صياغته بطابع حداثي داخل المد التجريبي، و هذا ما عبرت عنه من انجازات في المنطق، و تنظيم دقيق في الأخلاق، كما كشفت التجريبية فيها عن أرض جديدة في مجالات القانون والسياسة والحياة الاجتماعية، و التعليم وغيرها من المجالات المنتمية إلى الميدان العملي.

(1) محمد علي عبد المعطي، المرجع نفسه، ص:291،292.

(2) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:44.

(3) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:44.

و بهذا تكون التجريبية الانجليزية من خلال مرحلتيها الكلاسيكية والمحدثة قد عبرت عن مرحلة هامة ومهمة من مراحل الفكر الفلسفي عامة والأنجلو ساكسوني خاصة فهي التي نظمت الأطر الفلسفية التجريبية وأحسنت صياغتها على الموجه الصحيح وفقا لمتطلبات التطبيق، من خلال ما قدمته من اثراءات على المستوى النظري والعملي، لتكون بذلك فلسفة تجريبية عملية، إجرائية ونوعا ما براغماتية وبالتالي فلسفة مرجعية داخل منظومة العمل الفلسفي التجديدي.

الفصل الثالث: تجريبية جون ديوي و دورها البراغماتي

المبحث الأول: المسار الحياتي و الفكري لجون ديوي

المبحث الثاني: المرجعية التجريبية لجون ديوي

المبحث الثالث: ديوي و فكره التنويري الجديد

تجريبية جون ديوي ودورها البراغماتي

الفلسفة فعل تراكمي والخطاب الفلسفي يستحيل في نهاية المطاف إلى تبني أو تجاوز أو تصحيح، في شكل الخلفيات المعرفية المساقة سواء عبر القراءات أو التوجهات أوحتى اللغات ذات الصدى الإجتماعي، أو العمل الفلسفي عبر منطلقات إما بوعي يظهر في التأثرالمصرح به، أو اللاوعي الناتج عن ثغرات مفتاحية تؤدي به (الفيلسوف) إلى الإعتراف وهذا ما تبينه القراءة التحليلية النقدية، التي تتكفل بفتح أبواب النص والكشف عن تلك المنطلقات والمرجعيات.

ولما كانت البراغماتية فلسفة تأخذ دلالات عدة على الصعيد الفلسفي أو حتى العام – موضة لفظية – باتساع نطاق مفاهيمها هاته الأخيرة التي جعلت من مفاهيم فلسفية مؤسسة تابعة لها، بما في ذلك التجريبية، خاصة وأن هذا المفهوم يشكل بدوره فلسفة قائمة خاصة مع الإنجليز وبالتالي :

- هل التجريبية عند جون ديوي منهج للبراغماتية ؟ أم أنها لا تتعدى في كونها مرحلة من مراحل المنهج البراغماتي؟، و بعبارة أخرى
- إلى أي مدى وظّف جون ديوي البراغماتي التجريبية كمنهج ؟ وهل شكلت التجريبية منطلقا معرفيا لبراغماتية جون ديوي خاصة في بعدها الإجتماعي.

I - المسار الحياتي والفكري لجون ديوي

إن الدارس لتاريخ الفلسفة يلمس بطريقة أوبأخرى تلك المرجعيات والخلفيات البيئية والمعرفية لكل فيلسوف الذي يبقى الصوت الناطق لظروف اجتماعية وفكرية وإيديولوجية ونفسية فهو كيان تفجرت فيه روح البيئة.

وإن كانت النظرية القائلة بأن الإنسان ثمرة البيئة التي يعيش فيها فإن جون ديوي أبرز مثال على صحة هذه النظرية، وبهذا كان الفضاء الأمريكي عامة والبرغماتي خاصة سندا هاما لبراغماتية جون ديوي.

لهذا وجب التركيز وكضرورة منهجية في شكل تبيئة للموضوع على الظروف البيئية والفكرية وانعكاساتها على المسار الحياتي والفكري لجون ديوي، خاصة من ناحية القراءة العامة للتجريبية - التجربة الحياتية - عنده في محاولة التركيز على الإنعكاس الفكري بالدرجة الأولى " التكوين".

أولا: الفضاء البراغماتي قبل جون ديوي

تنقسم أمريكا فكريا إلى أمريكتين أحدهما أوربية وأخرى أمريكية ولعل الذي يهمنا هو الجانب الأمريكي لأمريكا، أمريكا التي تشمل الشعب المتأصل الجذور في التربة الأمريكية، فهو أمريكي قلبا وقالبا، وحسا وفكرا، أخلاقا ومثلا، فهي أمريكا التي أنجبت "لنكلن" و"ثورد"، إنها أمريكا الحصان ورجال الأعمال، أمريكا التي أثرت على بيرس وويليم جيمس(بكل ما فيها تقاليد مأثورة على الحرية والديمقراطية والعملية والعلمية) ومن بعدهم جون ديوي الأمريكي الأصيل[1].

(1) ديورانت وول، قصة الفلسفة، تر: فتح الله محمد المشعشع ، مكتبة المفكرون، بيروت، د(ط)، د(ت) ص:599.

ولهذا جاء التركيزعلى جيل المؤسيسين الأوائل كاستجابة لمطلب منهجي ومعرفي بالنظرإلى المحايثة الحادثة عند كثير من الباحثين في التعرف على البراغماتية كإتجاه فلسفي بقراءة أعمال المؤسيسين لتحقيق الفهم وتفهم أبعادها.

1- تشارلز سندرس بيرس (1839-1914) charles sanders peirce

يعد بيرس البراغماتي الأول واضع أسسها(البراغماتية)، اتسمت نشأته الفكرية بطابع علمي، وهو أحد رواد أمريكا في العلوم الرياضية، تحصل على شهادة الماجستير في الرياضيات ، وفي عام 1861 حصل على بكالوريوس في علوم الكيمياء وعموما يكمن اسهامه الفلسفي في منطق العلاقات والدراسات السيميوطيقية التي لازالت ملاذا لكثير من الباحثين حتى اليوم[1].

دوره البراغماتي الريادي يظهر من خلال مقالتيه واللتان وضع من خلالهما قاعدته البراغماتية .الأولى " تثبيت الإعتقاد" the fixation of belief سنة 1877 والثانية كيف نجعل أفكارنا واضحة how to make our ideas clear سنة 1878[2].

والشيء المهم في فكر بيرس هذا الفكر العسير الفهم، هو تلك النزعة العملية التجريبية التي تشبع منها جون دوي فيما بعد بالرغم من بعض تجاوزاته له حيث نجد تلك النزعة العملية مع بيرس تقترب بدورها من التجريبية، فكانت الفكرة عنده من خلال أثارها الفعلية، وعندئذ تكون فكرتنا عن هذه الآثارهي كل فكرتنا عن الموضوع، من خلال نقل الفكرة إلى الواقع ، ففكرتنا عن "النبيذ" لا تعني شيء إلا ماله من إشارة معيتة على حواسنا سواء كانت مباشرة أوغير مباشرة وهذا شبه فكرة تحقيق الفرض التي استوحاها من العلم الحديث حسب تكوينه العلمي[3].

وقد أقر بيرس بأن البراغماتية تخلصنا من إشكالية المعنى التي يتحدد من قابلية التحقق، إذ أن مفهومنا للعسل مثلا يرتبط خصوصا بمذاقه من مطلق أن

(1) جديدي محمد ، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا "، ص:30.

(2) المرجع نفسه، ص:30.

(3) كامل فؤاد، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط(1)، 1992، ص:98.

المعرفة الحقّة تقبل الحل عن طريق التجسيد (التجريب) وإلا كانت مزيفة لذلك يرى بيرس أننا لا يمكن أن نتحدث عن الفهم الحقيقي بعيدا عن الظروف الإجرائية مما يجعل البراغماتية عند بيرس تتجه نحو نظرية للمعنى، التي تحيل دائما إلى ماهو حقيقي .فالقول بأن بطارية السيارة انتهت لها معنى لأننا نتحول إلى جملة من التجارب الفعلية بهدف التحقق والإنجاز[1].

وبهذا فإن قاعدة التحقق من دلالة الأفكار والمدركات هي ما يكمن في الأثار العملية التي ينتجها تصورها، بمافيه من بعد عملي وامكانية للضبط التجريبي وعليه تصبح التجريبية سبيلا للبراغماتية الداعية للعمل في إطار المنفعة الفكرية.

وبالتالي يظهر الطابع التجريبي للعقل عند بيرس خاصة وكونه فيلسوف خبير بالشأن العملي العلمي ومتشبع بروح العلم وذلك من خلال العادة المخبرية أو المعملية للذهن رافضا بذلك مختلف المنطلقات المؤسسة للفكر التأملي كحالة الشك الدكاتري – ولو قارنا هذا مع التجريبية الإنجلزية لوجدناها نفسه خاصة مع لوك – الذي لا يراه موصلا للعبقرية ولا يعتبره سوى نقطة بداية للمعرفة وذلك عن طريق التعارض القائم بين نتائج التجربة مع حواسنا ومعتقادتنا ومن هنا يكون التساؤل وبذلك الشك ومن ثم القضاء على حالة الشك بالبحث وليس بالاعتقاد الفطري للأفكار فقط [2].

وحتى في حالة الشك نجد بيرس يركزعلى التجريب لأنه بدون هذا الأخير لا يمكن الوصول إلى المعرفة، خاصة وان نقطة الشك الرئيسية تكون في نتائج التجارب كأساس معطى قابل للشك (الواقعية).

يقيم بيرس نظرية قائمة على أن المدلول العقلي لكلمة من الكلمات أو عبارة من العبارات يكون في تأثيرها المقصود على مجرى الحياة، ولعل هذا ما سيظهر فيما بعد

(1)Blau .L.Joseph ,Men and Movements in American Philosophy ,p.248.

(2) برهيية أميل، تاريخ الفلسفة (الفلسفة الحديثة)، تر: جو رج طرابشي، دارالطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط(1)، 1987، ص:156.

مع ديوي كما ظهر كذلك مع جيمس، ذلك أن الشيء إذا لم يكن ناتجا من التجربة والتي ستظهر في الخبرة مع ديوي، لا يمكن أن يكون له تأثير مباشر على سلوك[1].

وعموما تبقى فلسفة تشارلز بيرس فلسفة عسيرة الفهم، على رأي المفكر الأمريكي جوزيف بلو"joseph bleau" إذا ما قورنت ببقية الإسهامات داخل السياق البراغماتي نظرا لإستغراقها في التحليل وكذا لاحتوائها على مصطلحات وكلمات غريبة خاصة وجملة التعديلات التي قام بها من خلال مصطلحه الأول "البراغماتية" لعدم فهم. استخدامه والذي عدل إلى براغماطيقية والتي رأى في إمكانية قبحها ما يصرف عنها اللصوص [2].

وجعل بيرس من الإعتقاد قاعدة للعمل وأن وظيفة التفكير تكون كخطوة في تكوين عادات السلوك وأن الاختبار النهائي لمعنى الصدق العقلي هو ما يحققه هذا الصدق في السلوك وفي هذا المضمار يقول بيرس «إن الظاهرة التجريبية هي الحقيقة التي تؤكد أن فعل وصف معين يستنتج عنه نوع معين من النتائج التجريبية» [3].

وهكذا يظهر بيرس واضع خريطة النهج البراغماتي، هو بدوره كتجريبي كما تظهر امكانية تأثيره في جون ديوي، وذلك بحكم تناولاته البراغماتية العملية - التي لم نتطرق لها بشكل تفصيلي- بالرغم من بعض الإختلافات في التوجه فبيرس يظهر كفيلسوف طبيعي لكن ماذا عن ديوي الذي عرف بنزعته التجريبية الإنسانية بالدرجة الأولى.

2- وليم جيمس(1842- 1910) william james

(1) جديدي محمد ، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا "، ص:31.

(2)Blau .L.Joseph ,Men and Movements in American Philosophy, p241

(3) تشارلز موريس، رواد الفلسفة الأمريكية، تر: ابراهيم مصطفى ابراهيم مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية مصر، د(ط)، 1996، ص:37.

ثاني فيلسوف عمل على وضع أسس البراغماتية، حيث ينظرالعالم إليه على أنه نموذج الفيلسوف الأمريكي ، وعنوان الفلسفة الأمريكية، هذا أكثرهم شيوعا وأوسعهم انتشارا في سائر أنحاء العالم سيرورة وذيوعا ، جاءت حياته في الفترة التي استكملت فيها الولايات المتحدة الأمريكية استقلالها الفكري بعيدا عن توابع الفكر الأوربي، ولد جيمس في الحادي عشر من يناير سنة 1842 بنيويورك، والده هنري جيمس روائي ومفكر كبير كان له أثر كبير على الابن جيمس[1].

وهذا يكون جيمس قد نشأ في جو علمي يعطي للجوانب الأكاديمية أهمية بالغة فقد تلقى تعليمه في أمريكا وأوربا كما استطاع أن يجمع بين لغات عديدة، ضف إلى ذلك تأسيسه للطرح الفلسفي من باب اهتمامه بعلم النفس والطب كما أن التوفيق بين الإيمان الديني والفكر العملي عدّ أهم ميل فكري جسدته اهتمامات وليم جيمس[2].

لقد عمل بيرس على توسيع نطاق البراغماتية ولم يرض لها كمنهج تحركه الروح النقدية واللغة المنطقية، وبالتالي نقل مجالها إلى الأخلاق والدين ولعل هذا ماتبعه فيه فيما بعد جون ديوي خاصة في مجال الأخلاق في بعض الخصوصية على حد تعبير ديوي فإن جيمس واصل عمل بيرس ولكن ضيقه من جهة ووسعه من جهة أخرى [3].

ولعل الاختلافات الرئيسة بين بيرس وجيمس كانت موجودة في الفروق بين مشكلاتهم التي تناولاها بالبحث، فمشكلة بيرس كانت موجهة نحو تشييد صرح فلسفة علمية sciontific philosophie، أما جيمس فقد كانت رسالة قدرية بحسب رالف بيرس " إيجاد صدق فلسفي يمكنه من تبرير إقامة الدين دون التخلي عن العلم "، لكن مع ذلك بقي المقصد عام وهام وهو البراغماتية بعيدا عن كل الإختلافات [4].

(1) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص:98.

(2) طرابشي جورج، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط(1)، 1987، ص:241.

(3) المرجع نفسه، ص:242.

(4) تشارلز موريس، المرجع نفسه، ص:46.

وعموما توسيع بيرس الذي تحدث عنه يعود إلى التفضيل الجزئي في الخبرة والنتائج ، ذلك أن المقصود من استعماله لكلمة عملي إنما هو الملموس المتميز الفردي الخاص والفعال لا مجرد العام وعديم الفاعلية " إذن فالإقرار بالنتائج الجزئية بدل العام هو في حد ذاته توسيع وتضييق للقاعدة التي صاغها بيرس، وإذا كان بيرس يكتب بروح المنطق فإن جيمس يكتب بروح الإنسان وهذا ماجعل ديوي فيما بعد يتأثر بفلسفة جيمس في بعض جوانبها خاصة فيما يتعلق منها " بإرادة الإيمان" أي حق الإنسان في الإيمان [1].

وفي اطار المرجعية التجريبية لمؤسسي البراغماتية وبالتالي جون ديوي نجد جيمس يقر بتلك المنطلقات التجريبية في فلسفته البراغماتية، خاصة عندما يرى أنها تسمية جديدة لطريقة قديمة، حيث كانت البراغماتية تجسيد لمحاولات عديدة ظهر ذلك من خلال المسار الكرونولوجي لها خاصة مع الإنجليز أي التجريبية [2].

هنا جيمس يشير إلى التجريبية التي أصبحت فيها بعد قاعدة العمل البراغماتي من خلال التحقق الفعلي والواقعي الذي لطالما كان سبيله التجريب ولهذا نجده يطلق على براغماتيته التجريبية الأصيلة radical empiricism وكلمة أصيلة هنا تمييزا لها عن التجريبية المتطرفة ذلك كونها تتألف من مصادرة ثم حقيقة وأخيرا من نتيجة وهذا كله ضمن المنهج التجريبي، فجيمس ذهب إلى البحث في العلاقات من خلال ماهو محسوس لتصبح شأنها شأن الأشياء الأخرى[3].

وتجريبية جيمس تقترب منه التجريبية عامة وبالأخص التجريبية الإنجليزية على حد تعبير جيمس واقراره بالجزئيات«... ورأيي في الأشياء أن أبدأ بالأجزاء

(1) جديدي محمد ، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا "، ص:33.

(2) James Willam , Pragmatisme ,Dover , Philosophical Classics , p.19.

(3) كامل فؤاد، المرجع نفسه، ص:109.

وأجل الكليات في المرتبة الثنائية من الموجود، إن فلسفتي فلسفة الواقع والتعددية مثل هيوم وأتباعه »[1].

وهنا تظهر سمات المنهج الاستقرائي، لكن هذا لا يعني أن جيمس كان تجريبيا محضا، لكنه كان تجريبيا بتجريبية أصيلة، باعتبار أن التجريبية التي توجد عند الفلاسفة الحسيين ليست إلا تجريبية سطحية ومحصورة في نطاق الإنطباعات الحسية في حين تجريبية جيمس كانت ديناميكية من خلال النشاط البشري والسلوك الذي يقوم به الإنسان في الإستجابة للأشياء وهنا تظهر الأصالة ولعل هاته النقطة ستظهر بشكل كبير مع جون ديوي لاحقا [2].

الحقيقة عند جيمس هي القيمة الفورية للفكر، فعوضا من التساؤل عن مصدر الفكرة ومن أين أتت واستمدت وماهي مقدماتها، فالبراغماتزم تفحص نتائجها وهنا يظهر الجانب التجريبي المعادي للميتافيزقا وذلك بالابتعاد عن كنه الشيء ومصدره والتوجه نحو نتائجه وثماره وعقباه وبالتالي بدل التوهان في دوامة التساؤلات كان لابد من التوجه إلى الواقع عن طريق الخبرة من خلال التجريب إلى غاية العملية ومنفعية [3].

الهدف الأساسي للبراغماتية في نظر جيمس متمثلا في ربط التفكير بالواقع يتحول كسلوك مبرز لعنصر الذكاء في قابلية للتكيف المتجدد مع الوسط مما يؤسس لحالة " الخبرة " التي يعمد جيمس في تفصيلاته اعطائها بعدا مفصليا متأثرا بتصوره في علم النفس الذي يعتبر العقل وظيفة وليس جوهرا، كما يعطي للديناميكية في التكيف مع الوسط أهمية بالغة ولعل هذه أهم النقاط التي بدت تأثيراتها جلية في فلسفة ديوى فيما بعد[4].

(1) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص:107.

(2) هويدي يحي، قصة الفلسفة الغربية، ص: 136، 137.

(3) جديدي محمد ، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا "، ص:33.

(4) ديوارنت وول، المرجع نفسه، ص:617، 618.

لكن الأمر الذي يؤخذ على جيمس هو تعثره في دوامة المتافزيقا خاصة في فكرة التدين وإيمانه بالصوفية وتوليه التجربة الدينية في المعرفة الإلهية وتوظيفه للعاطفة لكن تبقى البراغماتزم تساؤل عن نتائج الشيء وبذلك تحويل الفكر إلى العمل وتفعيله لخدمة المستقبل، وبهذا تظهر الثمار الحقة والفاعلية الأحق والتي ستوضح أكثر مع ديوي [1].

من أشهر مؤلفات جيمس التي أثرى بها البراغماتية والعلم ككل "موجز مبادئ علم النفس" 1842، إرادة الإعتقاد، البراغماتية 1907، معنى الصدق1909 وغيرها[2].

و عموما يعتبر جيمس أهم روافد الفكر الأمريكي عند جون ديوي، ومرجعية براغماتية تجريبية لابد من الإستشهاد بها خاصة في شقها النفسي.

ثانيا: جون ديوى و الانعطاف التجريبي البراغماتي:

إن قراءةا لسيرة الحياتية لأي فيلسوف مرآة عاكسة لمجموعة من التفاعلات والتوجهات ولو بصورتها البسيطة، التي تنتهي وبعد مخاض عسير إلى الوصول لذلك التكوين أو تلك الشخصية الفلسفية *، ولذا وجب العودة إلى المظان الأولى للتكوين لتشكيل رؤية صحيحة بعيدا عن التطرفات واللامرئيات.

عادة ما يشار إلى **جون ديوى (1859-1953) John Dewey** بأنه الفيلسوف الأمريكي المؤثر فهو النافذة التي من خلالها يمكن أن تفهم أمريكا، بالنظر إلى منجزاته

(1) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص: 100، 117.

(2) المرجع نفسه، ص: 118.

* إن الغاية من هذا العنصر توضيح مدى الانعكاس البيئي على تكوين ديوي من خلال مدى مساهمة الظروف الحياتية في بناء ديوي خاصة البعد التجريبي البراغماتي الذي يهمنا.

المعرفية فهو ابن مدينة برلنجتون Burlington، ولد يوم 20أكتوبر سنة 1859 شمال شرقي الولايات المتحدة من أبوين بورجوازيين[1].

وقد جاءت الصدفة أن سنة مولد جون ديوي هي السنة التي صدر فيها كتاب "أصل الأنواع" origin of species لداروين*، وهذا ما ستظهر تأثيراته لاحقا على فكر جون ديوي وبنيته الفلسفية البراغماتية، تلقى ديوي تعليمه أولا في فرمونت Vermont حيث تعددت دراساته وأهمها دراسته لنظرية التطور حيث قرأ المجالات العلمية التي تنشر لهذه النظرية، وفي السنة الرابعة من الدراسة الجامعية درس لأفلاطون والذي أثر فيه كما درس الفلسفة الإنجلزية[2].

ومن بين المؤثرات في جون ديوي نجد " توري" الذي كان يدرس الفلسفة بالجامعة وإليه يدين جون ديوي بأمرين:الأول استقرار أفكاره نهائيا نحو دراسة الفلسفة واتخاذها غاية له في الحياة، والثاني قراءته له للنصوص القديمة للفلسفة وذلك على الطريقة السقراطية (الحوار والصحة) ومن هنا أخذ ديوي فكرته التربوية التي سنوضح لاحقا[3].

كما تأثر بكتاب توماس هنري هكسلي (1825-1895) "علم الفسيولوجيا" والشارح لمذهب داروين في الثورة والارتقاء فاستمد منه دراسته القوية عن وحدة الكائن الحي والتي ستظهر من خلال " فكرة النمو " وبهذا يكون هكسلي قد خلق في نفس ديوي نظرة أوسع واشمل للأشياء تلك النظرة التي تتميز بها الدراسة الفلسفية التجريبية[4].

---

(1) طرابيشي جورج ، معجم الفلاسفة، ص:311.

* عالم طبيعي إنجليزي وضع نظرية في تطور الأحياء أدت به إلى نظرية فلسفية في الطبيعة، هو صاحب نظرية التطور Evolution من أشهر مؤلفاته "أصل الأنواع" 1859.

(2) الأهواني أحمد فؤاد، جون ديوي" سلسلة نوابع الفكر الغربي"، ص:21.

(3) المرجع نفسه، ص22.

(4)الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه ، ص:23.

تتلمذ على يد جورج موريس"G.S Moris" الذي كان أول من لقنه أصول الفلسفة الهيجلية وذلك في عناية هذا الأخير بفكرة الاتصال ووظيفته أي التاريخية والإستمرار، فقد رأى هيجل أن الوجود في صيرورة دائمة وفي تطور دائم، وأن الحقيقة تبعا لذلك في تبدل مستمر (النسبية) ، فهي دائمة التغير ولا وجود لحقيقة ثابتة والتي استمرت معه على أسس تجريبية " بعد تحول ثقة جون ديوي في الجدل إلى الشك ..."[1].

وبهذا تظهر التجريبية من خلال هيجل لكن بصورة ديوية خاصة، وهذا ما جعل ديوي يتخلى عن الأثر الهيجلي فيما بعد.

كما أخذ عن "ستانلي هول" "G.S Hall" الاتجاه الحديث في علم النفس القائم على التجارب لا على النظرالعقلي، وهذا يظهر تحديدا من خلال ما أخذه جون ديوي عن وليم جيمس من كتابه " أصول علم النفس" فكان بذلك علم النفس قائم على الحياة وبعد تحصله على درجة الأستاذية بجامعة متشجن Michigan أصبح زميلا لأستاذه موريس وظل ديوي يتنسم الهواء الهيجلي لكن وكما قلنا بنوع من التحفظ [2].

وفي سنة 1894 ذهب إلى شيكاغو Chicago وهناك ألفت ديوي أنظارالعالم لأول مرة أثناء تدريسه فيها،حيث كشف عن أفكاره في السنوات التي قضاها هناك أين أسس مدرسة عرفت بالمدرسة التجريبية والتي يقوم فيها التعليم على طرق جديدة وعاونهفي ذلك أباء يرغبون لأبنائهم الضرب الجديد من التعليم، فأمدوها بالمال والتأييد الأدبي[3].

وسميت هذه المدرسة بالمعملية، أو مدرسة جون ديوي، وسميت كذلك (معملا) لأنها كانت بالإضافة إلى تعليم الفلسفة وعلم النفس والتربية و...، كمعمل للعلوم الطبيعية

(1) المرجع نفسه، ص:23.

(2) ابراهيم مصطفى ابراهيم ، نقد المذاهب المعاصرة، ص:128.

(3)الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه، ص:26.

والكيمياء، وبهذا يظهر الطابع التجريبي عند جون ديوي والذي يتضح أكثر من خلال مشروعه التربوي[1].

استقال من الجامعة سنة 1904 ليدرس بعدها في كولومبيا من سنة 1905 إلى 1930 والتي أصبح فيها أستاذا للفلسفة، ولكن المهم أنها ساهمت في تكوين الكثير من الصلات التي كان لها تأثير على بناءاته التجريبية البراغماتية فيما بعد، حيث تعرف على " وردبرج" (صاحب مذهب الكثرة والتعدد) و"مونتيج" المهتم بنظرية المعرفة [2].

كما تأثر ديوي بجورج ميد george.H. mead فأخذ عنه البحث في العلاقات القائمة بين علم النفس وعلم الحياة وهذا ليس بالغريب على مفكر كديوي كان يعيش ليشعر دائما بالحاجة إلى تطبيق أفكاره والتأكد من صحتها في مضمار الخبرة العملية ولذا كان الانتقال من علم النفس إلى علم التربية غاية للتحقق من نظرياته في الذكاء والنشاط الذهني بصفة عامة فيما بعد [3].

ولعل من بين أهم المؤثرات الفكرية أو الأسرية إن صح التعبير في ديوي تعود إلى كون أبوه " أرشيالد" كان مثقفا، قرأ لشكسبير وملتون، كما كانت أمه" لوسينا وتش" أعرق نسبا وأوفر ثروة وأعز علما وهي من بثت في ديوي محبة الثقافة والتعلق بأهداب التعليم والمضي فيه .لاسيما وأن ديوي قد أخذ فكره العملي التجريبي من أبوه الذي كان من المهاجرين إلى أمريكا حيث كان من المنشغلين بالصناعات والزراعة [4].

حيث كان ثمرة من سلالة المهاجرين الذين صارعوا الطبيعة حتى استنبتوا الزرع واستخرجوا من بطونها المعادن فلم يعتمدوا على مال موروث أو أرض ذلول فهم أبدا في صراع مع الطبيعة باستخدام أيديهم وسواعدهم وعقولهم ولذا نجد ديوي نفسه كان من أجيال حب العمل واستخدام العقل في خدمة البشر وتسخير الطبيعة وخير دليل

(1) ديلودال جيرار، الفلسفة الأمريكية، تر: جورج كتورة و إلهام الشعراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ط(1)، 2009، ص:275.

(2) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ج1، مكتبة مصر،القاهرة، د(ط)1987، ص:60،61.

(3) المرجع نفسه، ص:60.

(4) الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه، ص:20.

على ذلك أنه كان يبيع الصحف، كما يشتغل في العطل في البيوت والحقول وهذا ما انعكس عليه لاحقا من خلال فكرة أن المدرسة والأسرة والمجتمع يجب أن يشاركوا في العملية التعليمية [1].

تزوج ديوي من " أليس تشايمان" سنة 1886 والتي لها تأثير كبير على ديوي يمن حيث كونها معلمة، ومحبة للعلم، صافية الذهن، كما كانت معروفة بنزعتها الثورية ضد الأوضاع الاجتماعية ومافيها من ظلم وظلام، انجب منها ستة أولاد كان يحبهم حبا فلسفيا هو ثمرة ملاحظته إياهم وتتبع نموهم ومشاهدة سلوكهم، مما كان له الأثر في تكوين نظرياته عن نفسية الأطفال وطباعهم فضلا عن نظريته الفلسفية في صياغة المجتمع والأخذ بيده عن طريق التقدم [2].

ولقد كان لهذه الخلفة الأثر الطيب في مشوار الأب الفلسفي، حيث ساهمت ابنته "ايفلين" في كتابة " مدارس الغد " كما كان ولده " سابينو"- بالتبني- يقوم بالمهام العملية التي جاء بها ديوي في التعليم الابتدائي وكانت ابنته "جين" كاتبة لسيرة والدها، ولعل هاته المشاركة العملية بين ديوي وابنائه دليل على مدى المؤثرات التكوينية له والتي كانت بمثابة السند[3].

كما أضافت جملة الرحلات التي قام بها ديوي إلى كل من أوربا وإنجلترا وايطاليا واليابان والصين وتركيا والمكسيك، طابعا خاص على خبرته الفلسفية والعملية والفكرية، خاصة السياسية منها الاجتماعية، ذلك من خلال جملة المحاضرات التي ألقاها فيها لا سيما في جامعة الإمبراطورية بطوكيو، كما ساهمت زوجته في حركة تحرير المرأة الصينية ومطالبتها بتعليم الذكور، الأمر الذي زاد من إيمان ديوي بأن التربية سبيل إلى أحداث الثورة الاجتماعية وبالتالي تقدم الأمة[4].

(1) الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه، ص:21.
(2) المرجع نفسه، ص:25.
(3) المرجع نفسه، ص:27.
(4) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص:129.

وهكذا تعددت المؤثرات وتباينت لترسى في الأخيرعلى عقلية براغماتية تربوية جعلت من ديوي صوت ناطق بلغة أمريكية نحو لغة عالمية، وهذا ستوضحه جملة منجزاته التي تعد دستورا يضاف إلى جملة الدساتير الفلسفية.

إن الحديث عن بدايات ديوي يظهره كتربوي أو كمربي بالدرجة الأولى من خلال النشاط العملي الذي قام به خاصة في المدرسة التجريبية، حيث أصدر ديوي عام 1900 أول كتاب له في التربية "المدرسة والمجتمع" the school and society والذي حاول من خلال أن يبين لجماعة المربين كيف أن محور العملية التربوية هو " المتعلم نفسه" وليس "مادة الموضوع المدروس" وكيف أن تلاميذ المدرسةُيكونون فيما بينهم مجتمع مصغر مثله مثل المجتمع الكبير في الحياة والنشاط وقد ترجم هذا الكتاب إلى أكثر من ثلاثة عشر لغة منها العربية[1].

وفي عام 1903 أصدر ديوي بالإشتراك مع زملائه وتلاميذته "دراسات في النظرية المنطقية" studies in logical theory"، والتي لقيت ترحيبا كبيرا من طرف وليم جيمس، حيث وجد هذا الأخير في هذه الدراسلت دليلا واضحا على تأثير مدرسة شيكاغو بأصول النهج البراغماتي خصوصا وقد بدا بوضوح فيها عن أثر الهيجلية فيه، وأنه راح يصنع أصولا لنظريته الأداتية instrumentalist في فهم دور العقل والذكاء داخل حيز التطبيق في محاولة للتكيف[2].

وكذا كتاب تجديد في الفلسفة سنة 1920 Reconstruction in philosophy والذي جعل من خلاله الفلسفة متصلة أكثر بحل مشكلات الحياة، فجعل من التعاليم السياسية أو الاجتماعية الاهتمام الاكبر وذلك بالاهتمام بأهداف البناء وهي :

1 -محاولة ديوي أن يجعل البحث الفلسفي يحل مشكلات اجتماعية معاصرة .

(1) ديوي جون، المدرسة والمجتمع، تر: أحمد حسن الرحيم، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر،بيروت ، ط(2) 1975، ص:16.

(2) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ج1، ص:60.

2 -تطوير منهج الذكاء من حيث أنه أداة أساسية لحل هذه المشكلات وفق منطق جديد قائم على الخبرة.

3 -تطوير النظرية السياسية لتصبح قائمة على الفهم التطويري للانسان والمجتمع داخل النظام التربوي[1].

دائما في مضمار الفلسفة الاجتماعية نجد جون ديوي باعتباره فيلسوف واقعي واجتماعي يكتب في هذا من خلال مؤلفه "الطبيعة الانسانية والسلوك" وفيه يوضح طبقتين حيث أن طبقة من المجتمع تكفل مستقبلها على حساب طبقة أخرى حيث رأى أن التقسيمات الطبقية تدل على خلل عميق في المجتمع أي بين الانتاج والاستهلاك والذي يفض دائما إلى تقويض العلاقات الانسانية السليمة، وعموما كان هدف ديوي ربط الفرد بمجتمعه من خلال سلوكاته الفعالة [2]

وكذا كتب أخرى لقيت من الشهرة ما لقاه صاحبها مثل كتاب اعادة البناء في الفلسفة هو نفسه التجديد في الفلسفة لكن بطبعة جديدة والذي يعرض العوامل الاجتماعية والسياسية والعلمية المؤثرة في تطور المفاهيم الفلسفية حيث يتحول الفرد من كيان ثابت " معطى" إلى "خلاق" ومبدع في ظل المجتمع الديمقراطي الذي سيكون حافزا لانطلاق طاقاته الخلاقة " النمو"[3].

وعموما فقد كان ديوي موسوعي في طرحه، جعل من مؤلفاته وفلسفته لغة عالمية بلغت مؤلفاته 35 مؤلفا بالاضافة إلى ما تم ذكره نجد: "عقيدتي التربوية "My Pedogogic creed سنة 1927، و"علم النفس والمنهج الفلسفي" psylology and philosophie method سنة 1899، "الخبرة والطبيعة" expérience and nature سنة 1925، "الديمقراطية والتربية" Democracy

(1) كروسي جوزيف وليو شتراوس، المرجع نفسه، ص:535.

(2) المرجع نفسه، ص:535.

(3) ديوي جون، اعادة البناء في الفلسفة، تر:أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط(1)، 2010 ص: 181،182.

and education سنة 1916 وغيرها كفن خبرة، و...، من المؤلفات ذات الروح البراغماتية والنزعة العلمية الأداتية وفقا لمنطلقات تجريبية ديناميكية [1].

هكذا ظهر جون ديوي على الساحة الفلسفية بحد جملة من الحيثيات والمؤثرات ساهمت في تشكيل وبلورة فكره البراغماتي لا سيما في شقة التجريبي – الذي هو ملاذنا من البحث –، فهو الذي سيظهر فيما بعد كداعي للتجريب والعمل من صميم المجتمع في محايثة للواقع المعاش، وبالتالي لم يكن همنا من التطرق إلى البراغماتيين الأوائل إضافة إلى صفحات تاريخية ولكن توضيح ذلك الامتداد الفكري من خلال البيئة الأمريكية نفسها .

II- المرجعية التجريبية لجون ديوي:

الأمر الذي لا غضاضة فيه هو كون أن البراغماتية فلسفة أمريكية بالأساس إلا أن ذلك لمك يمنع وجود روافد وتأثيرات، ساهمت في نشأتها كما أنها كانت ملاذا وسندا لكثير من الأفكار البراغماتية، على حد تعبير وليم جيمس حينما وصف البراغماتية بأنها اسم جديد ببعض الطرائق القديمة في التفكير.

البراغماتية منهج تطبيقي وفقا لآلية عملية ديناميكية، مع تنوع تسمياتها " ذرائعية، أداتية، تجريبية، علمية،..."، الأمر الذي جعلها تلتقي وتتقاطع مع مختلف الاتجاهات الفلسفية التي تقر بالفعل والنجاح والتغيير في إطار الممارسة الواقعية بما في ذلك التجريبية.

(1) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص: 129.

لقد أصبحت لغة العلم المعاصر ومعه المنهج المتبع - أي التجريبي – نموذجا يجب اتباعه والتمسك به لأنه السبيل الوحيد لمعرفة العالم معرفة حقيقية تزيد من سيطرة الانسان على الطبيعة، وبالتالي النجاح في الحياة، وامتلاك وسائل النجاح بالعمل من خلال المنهج خاصة وأن مذهب جون ديوي بحكم الواقعية في ظل أولوية العمل والتطبيق غالبا مايعرف بالطبيعانية التجريبية Empirical Naturalism[1].

خاصة وأن التجربة جزء من الخبرة هذه الاخيرة التي هي أساس البناء الديوي ولهذا كانت التجربة بمعناها الداخل تحت الخبرة من بين الاهتمامات عنده، فقد اتسمت فلسفته بالنزعة التجريبية التي تتخذ من الخبرة ملاذا لها، فالفيلسوف عند جون ديوي يجب أن يواجه شتى مشكلاته ابتداءا من التجربة الذاتية العادية وليس من التجديدات المتافيزيقية القيّمة والتركيبات اللفظية الملفقة[2].

لذلك نجد ديوي نفسه – بالاشارة إلى مهذبه – يستخدم اصطلاحين مختلفين هما الفلسفة الأداتية Instrumentalism تارة والفلسفة التجريبيةexperimentalism تارة أخرى، ولعل كلاهما فيه ريادة للتجريبية خاصة الثاني الذي يشير إلى أن الخبرة لا تعني " التقبل السلبي" بل تعني ضربا من التجريب أو البحث الايجابي[3].

وبهذا كان ديوي معاديا للماورئيات في مقابل الواقع، فهو يشكك في تلك الدراسات العامة التي تشغل الميتافيزيقيين في بحثهم عن مشكلة المعرفة بصفة عامة وتساؤلاتهم (مثلا عما اذا كانت المعرفة ممكنة، وحيث لا يشكك في عالم الفيزياء حينما يبحث عن القوانين العامة للحركة في حين يبحث الميتافيزيقي عن الحركة بصفة عامة فالميتافيزيقي في نظر جون ديوي يثير كثيرا من المشكلات العقيمة [4].

(1) جديدي محمد، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا"، ص:45.

(2) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص:62.

(3)ابراهيم زكريا، المرجع نفسه، ص: 70.

(4) المرجع نفسه، ص: 63.

ديوي هنا يتوجه نفس التوجه التجريبي الذي يرى أن أمثال هذه المشكلات لا تخرج عن كونها مجرد أشباه مشكلات لدرجة أنه ينعتها بالصيغ المريضة وبهذا تظهر التجريبية تدريجيا عند جون ديوي بحكم رفضه المطلق للميتافيزيقا بكل تجلياتها اللاواقعية، في مقابل التجريبية الديناميكية بعيدا عن تلك الماورئيات وقضايها الفارغة ولعل الأمر ليس بالغريب على ديوي الذي يتنسم هواء الواقعية في بلد تحركه الروح الواقعية [1].

شكلت التجريبية أوالبراغماتية اليونانية ولو بصورتها النظرية – كما رأينا – دعامة وأصل للفكر الامريكي، ذلك أن سقراط من خلال انخراطه في النقاش مع الآخرين من منطلق كل معرفة هي معرفة من خلال المفاهيم تحيل إلى جوانب من فلسفة جون ديوي، ومن قبله بيرس واحتفاؤهما بعبارة معبد دلفي " أعرف نفسك بنفسك " لتكون نقطة انطلاق الفلسفة هي الخبرة أو علم النفس ونقطة نهايتها ممارسة اخلاقية في اطار التجربة [2].

وهذا ما يظهر الطابع الاجتماعي في العلاقات الذي دعى إليها جون ديوي ضف إلى ذلك دور الخبرة عن طريق التجريب والممارسة التربوية على ضوء المجتمع وكذا الديمقراطية وبالتالي تجريبية جون ديوي كانت شبيهة إلى حد ما بتجريبية سقراط، ولكنه فعلها وجعلها أكثر واقعية في اطار العمل البراغماتي .

بالاضافة إلى دعوة سقراط إلى النسبية وضرورة المحاولة ولعل المحاولة هنا تشير إلى التجربة، وذلك بتمثله لمفهوم الخبرة التي تتيح للفرد إمكانية التعلم داخل الوسط بمساعدة الآخرين، وهذا نفسه ما ظهر عند ديوي في منهجه التربوي، وبالتالي فان سقراط بالرغم من كونه فيلسوف نظري لم يرق إلى التجريبية بمفهومها العام، إلا أنه

(1) بتركاز، تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، تر: حسني نصار، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، د(ط) 1987، ص:8.

(2) ستيس وولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د(ط) 1984، ص:97.

أفاد إلى حد كبير خاصة في أسلوبه التربوي وعلى ضوء هذا نجد (سقراط) في تعبيره يؤكد على أن الحياة بدون خبرة لا تستحق أن تعاش [1].

الأمر الذي جعل من البراغماتية في بنيتها العامة بحثا عن الفكرة الناجعة بحيث لم تختلف كثيرا عن التجريبية خاصة الانجليزية التي تهدف إلى تغيرات جديدة وناجحة موجهة لخدمة الفرد والمجتمع، بما فيها من نداءات للحرية من خلال المنهج التجريبي لأن الدرس الرئيسي الذي يقدمه المذهب التجريبي هو أن الانسان لا بد أن يرى لنفسه ولا بد أن يشعر أنه حاضر في كل واقعة من الوقائع التي عليه أن يقبلها من المعرفة [2].

وقد نبه جون ديوي إلى دور التجريبية الانجليزية في توجيه وافادة البراغماتية كما يعتقد بأن وليم جيمس حينما نعت البراغماتية بأنها اسم جديد لطريقة قديمة للتفكير قد أشار من خلال احالة تاريخية أولى إلى أعمال فرنسيس بيكن من خلال مؤلفه الاورغانون الجديد Novum Organun والذي كشف من خلاله عن منهجه الجديد الذي ستظهر تأثيراته على جون ديوي [3].

خاصة وأن الفلسفة التي تبناها ديوي تخرج من السكونية لترسم طريقا ديناميا حركيا موجه نحو العمل في إطار التجريب، فهي فلسفة أداتية تجعل من الأفكار والتصورات والنظريات وسائل وأدوات، فالمعرفة مع جون ديوي موجهة لمواقف تتطلب حلول [4].

تحيل الاجتهادات التي جسدها فرنسيس بيكن في عصر النهضة إلى التأكيد على التجديد وهذا تماشيا ومؤلفه الاورغانون الجديد وعلى وجوب الخروج من شرنقة الذات وبالتالي آن الأوان للبحث الجديد والتجديد [5].

وذلك بالتوجه إلى الطبيعة ملاحظا ومجربا، فالموضوعات التي تكشف عن اتصالها بالواقع جديرة بالبحث العلمي، أما الأفكار البعيدة عنه فهي من قبيل الميتافيزيقا

(1) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، د(ط)، د(ت)، ص:57،59.

(2) امام عبد الفتاح امام،المرجع نفسه، ص:141.

(3)Blau .L.Joseph ,Men and Movements in American Philosophy,p.230.

(4) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص:65.

(5) علي ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم "منطق الاستقراء"، ج1، ص:95.

وبالتالي وجب التوجه إلى الطبيعة بغية استنطاقها وتطويعها والسيطرة عليها عن طريق الاكتشافات والتجارب العلمية في سياق تربوي يهدف أساسا إلى تحقيق النفع للانسان [1].

كما يؤكد فرنسيس بيكن ضمن نسقه العام الذي أفاد به جون ديوي كثيرا خاصة في مسألة التجديد على أن عملية الكشف لا تكون إلا باختراق الطبيعة والبحث في أسرارها وامتلاكها بمنهج تجريبي نشط وفعال، وهي نفس فكرة جون ديوي وبالتالي تصبح الطبيعة أداة تشدنا من خلال أفكارنا (وظيفة العقل الجديدة) التي تؤدي إلى فعل الأداة والوسيلة ضمن المنهج الأداتي، خاصة وأن هدف ديوي الرئيسي هو تكييف الفرد بما في ذلك الطبيعة التي نجد قبله بيكن قد كيفها أحسن تكييف فجعل المعرفة قوة[2].

في مضمار هذا نجد دون ديوي يقول:" لقد وضعت معالم فكره الأساسية أمام عقولنا الخطوط العريضة للروح الجديدة التي كانت تعمل على استحداث التجديد العقلي [...] وخير ما يؤثر عن بيكن قولته المشهورة (أن المعرفة قوة)"[3].

ويؤكد ديوي هنا على تلك الوسيلة التي وضعها بيكن من خلال منهجه أمامه وأمام كل القوى مجددة، وبهذا يصرح ديوي على الأصول التجريبية البيكنية.

فذهب ديوي نفس مذهب بيكن وقدره أحسن تقدير فقال :" ...لست أدري أكان وليم جيمس يفكر في فرنسيس بيكن عندما وصف البراجماتية بأنها اسم جديد لطريقة قديمة من طرق التفكير ولكن بيكن من حيث سعيه وراء المعرفة ومن حيث جوها ليصبح أول من تنبأ بفكرة النظر إلى المعرفة نظرة براجماتية عملية"[4].

وإذا كان ديوي يؤكد على الأداة في الوصول إلى النجاح فان فرنسيس بيكن صنع الأداة من خلال الأورغانون الجديد وبالتالي وضع أسس التجريبية ومهد

(1) ديوي جون، اعادة البناء في الفلسفة، ص:61.

(2) راسل برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية "الفلسفة الحديثة"، ج3 ، ص:483.

(3) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، تر: أمين مرسي قنديل، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، د(ط)، 1957 ص:92.

(4) المصدر نفسه، ص:105.

للبراغماتية وهذا باعتراف ديوي نفسه من توضيح فكرة المعرفة قوة عند بيكن وما مدى فاعليتها في بناءات الفكر البراغماتي.

دائما وفي اطار تأكيد ديوي على الدور الريادي لبيكن ومدى تأثره به نجده يقول " بيكن المؤسس الحقيقي للفكر الحديث"، حيث نجده (ديوي) يثمن بإجراء التجريب من خلال منهجه في الذكاء بعيدا عن التأملات الفارغة وجعل الطبيعة تقول الصدق بنفسها وتبوح بحقيقة أمرها، وبهذا فتح أبواب الصناعة والتجارة والظروف الاجتماعية الخيرة التي تؤدي إلى الاختراع والزراعة والبحث وهذا هدف بيكن من قبل في اسعاد البشر وديوي لاحقا [1].

فكانت المعرفة من هذه الزاوية ليست سابقة على التجربة بل نابعة منها وهي ثمرة للخبرة عكس ما دعى إليه كانط في إقراره بمقولات قبلية تصب فيها إدراكاتنا للأشياء في حين ديوي بحكم اتجاهه التجريبي يرى أن "المعرفة هي ثمرة الأعمال التي تحول الموقف المشكل إلى موقف محلول وإجراؤها صريح لأنه جزء من الطبيعة وشريك لها في كل تعامل موجود" [2].

من خلال منهج الذكاء*، عند ديوي تظهر الأصول التجريبية وذلك من خلال بيئة المنهج التجريبي عامة أي الأسلوب الثلاثي الخاص بملاحظة الوقائع وفرض الفروض وإختبار النتائج وهنا تظهر نزعة ديوي التجريبية وفقا لفكرة الخبرة عنده [3].

دائما وفي إطار البحث ومراحله نجد ديوي يظهر تجريبيا حيث أن البحث عنده قائم بالأساس على اجراء ملاحظات عن موقف مع تذكر ملاحظات سابقة، ثم تصور الاقتراحات الممكنة لفض الموقف ثم الحكم عليها (الاقتراحات) عن طريق مقارنتها ببعضها ثم ملاحظة مدى صلاحية الحل المقترح وأخيرا اختبار الحل عن طريق اخراجه

(1) ديوي جون، اعادة البناء في الفلسفة، ص:63.

(2) جديدي محمد، فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجا"، ص:159.

*منهج علمي اتبعه ديوي وذلك ضمن منهجه الاداتي حيث أعطى وظيفة جديدة للعقل لكي يصبح كأداة، رأى من خلال هذا المنهج الصلاح، طبقه على سائر الحقول الفلسفية (التربية، السياسة) على ضوء الخبرة.

(3) كروسي جوزيف وليو شتراوس، المرجع نفسه، ص:536.

إلى حيز الوجود، و لعل ما يظهر في مبدأ التحقيق، فاتحقيق عند ديوي هو تحول المراقب أو الموجه لموقف غير محدد إلى موقف محدد في تميزاته و علاقاته المكونة الذي يحول عناصر الموقف الأصلي إلى كل موحد[1].

ولو قورنت تلك المراحل التي تحدث عنها ديوي بالمنهج التجريبي العلمي لأقتربت منه كثيرا، حيث أن المنهج التجريبي عبارة عن ملاحظات وتجارب وفروض وبهذا يظهر الحضور التجريبي في فكر ديوي من خلال مراحل البحث المنهجي [2].

كما أن الخبرة في معناها الحيوي دليل على التجربية ذلك أنها تأخذ التجربة سبيلا للوصول إلى تلك الحيوية فيعطى مثال على ذلك " عن الطفل الصغير الذي يلمس النار بإصبعه، إذ ليس حرق النار لاصبع الطفل كافيا في الحصول على الخبرة بل لا بد أن يتألم ويفهم " وبهذا يصبح اللمس كمرحلة أولى للتجريب وسبيلا للفهم بعد أن يتألم الطفل إذ لا وجود للخبرة الحيوية التي تحدث عنها ديوي دون تجريب وبالتالي الوصول إلى النتائج[3].

كما تتقاطع براغماتية جون ديوي في بعدها التجريبي مع الفلسفة التجريبية الظاهرة في أفكار جون لوك ودافيد هيوم خاصة وأن الفهم التجريبي تأسس على رفض التسليم بالمطلقية، زيادة على نفي دور التأمل في إنتاج المعرفة الحقة بمقابل التركيز على الفعل المستند إلى الحس والتجربة.

هذا ما يلاحظ على أعمال جون لوك الذي يعد أحد مؤطري المشهد الثقافي التجريبي في انجلترا بعد بيكن أنه رفض القبليات ودعى إلى التجريب والخبرة الحسية وفي هذا المنحى ذهب جون ديوي ومن قبل بيرس وجيمس بالرغم من التفاوتات الفرعية لكل مذهب [4].

---

(1) ديلودال جيرار، المرجع نفسه، ص:282.

(2) عبد القادر ماهر، فلسفة العلوم " المتودولوجيا "، ص:47-58.

(3) الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه، ص:51.

(4) ابراهيم عبد الله، المركزية الغربية، ص:67.

خاصة وأن جون لوك اتبع المسار التجريبي في الفلسفة وذلك بمناهضة الرواسب الاجتماعية وإعادة النظر في الموروث، وهذا ما جعل من ديوي وفلسفته يتقاطعان بشكل أو بآخر وفلسفة جون لوك خاصة في بعدها السياسي والاجتماعي ذو الروح التجريبية من خلال الصيحة التي تقول "كفى تخبطا في التجريدات الفارغة، ودع عينيك مفتوحتين، وركزهما على الطبيعة وعلى الانسان على نحو ما يظهر أمامك واستمتع باللحظة الحاضرة" [1].

خاصة وأن جون ديوي جاء بفلسفة لا تخدم المعطى، حيث دعم الحريات وفلسفة الحرية والمسؤولية في اطار علاقات تفاعلية بين الفرد ومحيطه، بكل ما في الأداتية من أبعاد إنسانية وإجتماعية في ظل التغيير الحاصل داخل بنية المجتمع هذا الأخير الذي كان بكل مافيه من تجليات نقطة إنطلاق كل فلسفة كيف لا وهو خليط االخبرات الفردية والجاعية وهذا ما عبرت عنه أحسن تعبير الديمقراطية الليبرالية[2].

وللعلم فإن الليبرالية* Libiralisme وجدت مداها هذا الأخير الذي يعد بحق فيلسوفا متسامح ديمقراطي في طرحه الرافض للاستبداد والتعدديات في دعم للحريات وذلك بالإيمان بها سواء في الإيمان أو التفكير أو العمل، وكل ما يمكن أن يدخل ضمن دائرة القيم الاخلاقية والانسانية التي ستظهر مجددا مع جون ديوي في فلسفته الاجتماعية والانسانية [3].

وفي ظل الاستبداد يرجع ديوي إلى بيكن مجددا في رفضه له فيقول: "
إن سيطرة الانسان على الطبيعة يجب أن تحل محل سلطان الانسان على الانسان" وهكذا

(1) إمام عبد الفتاح امام، المرجع نفسه، ص:141.

(2) جديدي محمد، ما بعد الفلسفة مطارحات رورتية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت د(ط)، د(ت)، ص:162.

*مذهب سياسي يحيل من الناحية الاشتقاقية إلى الحرية وهي توجه سياسي يتعلق بحق الحرية في اطار استقلالية السلطة التشريعية عن القضائية دون أي عائق أمام الحرية الفردية.

(3)موريس تشارلز ، المرجع نفسه، ص:128.

يظهر أن جون ديوي في تبنيه للتجريبية كان دائم التأكيد على الحرية الفردية وبالتالي صلاح المجتمعات باعتبار الفرد صاحب الكلمة في مجتمعه (الديمقراطية)[1].

وتظهر آثار التجريبية الانجليزية من خلال الأطر العامة للبراغماتية عند ديوي القائمة على المحبة والأمل والتضامن وفقا لآليات تحررية ديمقراطية وانسانية، وهذا طابع الفكر الانجلوساكسوني ككل والذي يظهر في فلسفة جون لوك من خلال فكرة التسامح وكل بنودها من محبة وفصل بين السلطات " الدينية والمدنية " وقبل ذلك نظريته السياسية التي جاءت كاستجابة لظروف اجتماعية بروح تجديدية، وهذه هي الخبرة الحيوية التي تحدث عنها ديوي وذلك بالعمل وفقا لاحتياجات ومتطلبات واقعية بهدف الاصلاح [2].

بالاضافة الى فكرة الفصل بين ما هو بائن وما هو روحي بمنطلق أن الدين مسألة شخصية، وذلك من أجل ضمان إنسانية الثقافة والحرية، وهكذا فإن نتائج البراغماتية هي انهاء للدين بمعناها الدوغمائي، فديوي يرى أن لكل فرد دين يختلف عن الآخر بحسب اختلاف تجاربهم الدينية، وهي فكرة وجدت من قبل مع لوك والانجليز في اطار الممارسة والتجربة الدينية[3].

كما يظهر آدم سميث في اطار الاصول التجريبية لجون ديوي كمرحلة مهمة من مراحل هاته الأصول، من خلال سعيه لحرية أكثر من الجانب الاقتصادي خاصة في الصناعة والتجارة تطبيقا لمبدئه " دعه يعمل، دعه يمر "، خاصة وأن جون ديوي يرى أن المجتمع ليس سيحا فسيفسائيا amasaic من أفراد مستقلين، وليس كلا عضوي بحيث يعتبر الفرد دخيلا عليه ولذلك جاء تصوراته السياسية كاستحسان لعبارة آدم سميث " دعه يعمل " laissez faire والذي تظاهر معها النزعه اللاإستبدادية[4].

(1) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ص: 103.

(2) لوك جون، رسالة في التسامح، ص:10–20.

(3) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص:154.

(4) موريس تشارلز، المرجع نفسه، ص:128.

وبالتالي يظهر حضور سميث في الفلسفة البراغمائية عامة وفلسفة ديوي خاصة كونها فلسفة تدعو للعمل وأي عمل غير ذلك الذي يحقق المصالح المشتركة هذا هو نفس اتجاه الفيلسوف الانجليزي سميث بأبعاده التجريبية والذي دعى من خلال مؤلفه" ثروة الأمم " أن المصالح الفردية تؤدي إلى المصالح الجماعية وذلك بحصر رأس المال في الثروات المنتجة لتبرير الفائدة والدخل تبريرا أخلاقيا وبالتالي العودة بالربح والفائدة على الغير، هذا هو نفس مطلب براغماتية ديوي[1].

كما اشترك ديوي ولوك في مسألة التسامح بحكم أنه مقابل للعدوانية والعنصرية والعنف في عدم تجاهل أعمال المخربين كما أن التعصب يضيق أفق التسامح فان اللاعقاب يشكل تحديا آخر لمفهوم التسامح الذي لا يعني في نهاية المطاف سوى إيمانا بالتنوع واستبدالا لثقافة الحرب بالسلم خاصة وأن الغاية الأولى والأخيرة تبقى مصلحة الفرد في اطار الجماعة [2].

وتظهر الخلفية التي مثلها هيوم هذا الأخير حيث أقصى مختلف الحدوس من المعرفة بمنطلق تطبيق مراحل الفعل التجريبي لدراسة وفهم الانسان كحالة متفردة وجديدة، خاصة وأن الوجود الفردي يحيل إلى الواقع وأن الأشياء الفردية والجزئية إلى الحقيقة بمقتضاها العلمي[3].

بهذا تكون التجريبية قد أمدت البراغماتية كثيرا لكن بالاعتماد على الظواهر اللاحقة لا السابقة في امكانيات العمل حيث يصبح تصور الحقيقة عبارة عن تحقيق وتحقق فلم تعد الحقيقة تعني شيئا آخر سوى التحقيق وبعبارة أخرى فان التحقق والحقيقة إسمان لنفس الشيء، فنسمي تحققا حينما ننظر اليه كعملية ففي التطور تعرض الفكرة

(1) بتر كونزمان وآخرون، الاطلس، تر: جورج كتورة، شركة الطابع والنشراللبنانيين، بيروت، د (ط)،2001 ص:135.
(2) لوك جون، رسالة في التسامح، ص:54،75.
(3) نجيب زكي محمود، دفيد هيوم، دار المعارف، مصر، د (ط)، 1958، ص:44.

على تمحيص وفحص كل ما من شأنه أن يجمعلها حقيقة ونسميها حقيقة إذا أخذناها كنتيجة وكعملية ملخصة وموجزة [1].

وفي السياق نفسه يظهر جون ستوارت ميل كمعبر صريح للبراغماتية وهذا ماأكده وليم جيمس من خلال كتابه " البراغماتية " وتحديدا في صفحة الاهداء بقوله إلى ذكر جون ستوارت ميل الأول الذي علمني الأبعاد المفتوحة للبراغماتية والذي يسعدني أن أقدمه كقائد.

الأمر الذي جعل ميل يظهر في فلسفة ديوي ومن قبل في فلسفة البراغماتيين فهو يصرعلى منطق الخبرة والاحتكام للواقع حيث وضع الاسلوب المتحرر الذي يحتل أكبر عدد ممكن من مجالات التجربة (الخبرة)، ضف إلى ذلك دعوته للروح التوفيقية التي هي دائما على استعداد للتوسط بين المدارس الفكرية المتعارضة [2].

هذا نفس ماجاء به ديوي في تأكيده على الخبرة والاحتكام للواقع من منطلق ردع الفلسفات القبلية والحدسية وكذا في الدعوة إلى هدم الثنائية المتضاربة في الفضاء الفلسفي حيث رأى أن الفلاسفة التجريبيون اعتمدوا على الخبرة وهو يدعوا بضرورة الرجوع إليها [3].

في إطار المدرسة المحدثة (النفعية)، نجد تأثير جريمي بنتاج واضح وذلك بتركيزه على نتائج الفعل التي تقاس في أساسها من خلال مدى نفعها وإسعادها لأكبر عدد ممكن من الناس وكذا في مهاجمة الحدوس والمبادئ التي لا تعير اهتماما للنتائج [4]

(1) جديدي محمد، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا"، ص:202.

(2) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:58.

(3) جديدي محمد، فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجا"، ص: 55، 56.

(4)متس رودلف، المرجع نفسه، ص:45.

وهو نفس الشيء عند البراغماتيين في النظر لقيمة النتيجة النفعية، ومدى مصداقية الآثار العملية للفكرة أي نجاح الفكرة على أرض الواقع وهذا نفس مبدأ ديوي من خلال منهجه الاداتي وعموما يعد بنتام فيسوف مجدد Radical كما أسماه معاصروه حيث كان هدفه عملي من أجل التغيير الهادف وهو نفس هدف ديوي [1].

إن التجريبية الانجليزية شكلت مرجعية هامة للفكر البراغماتي ككل وفكر ديوي على وجه الخصوص وذلك من منطلق جملة من المسلمات والقواعد والبنود التي لا يمكن الخروج عنها داخل الفكر الانجلوساكسوني وكذا من حيث التجريب المنهجي وأولويات الواقع في اطار الممارسة التجريبية

ذلك من خلال منهج ديوي الأداتي الذي يؤمن بروح العمل والتجريب، فالعقل البشري عند ديوي نتاج التطور البيولوجي فهو"أداة"، حيث دعى إلى إخضاع فاعلية العقل ووظيفته للتجريب وللتقييم وللتحويل مما جعله يفتح صف تجريبي في جامعة شيكاغو قائم على مبادئ مذهبه والذي أخصه في مدرسته التجريبية القائمة بالدرجة الأولى على التجريب العملي، هذا وفي جملة مؤلفاته نلمح تلك التجريبية التي صرح بها ديوي نفسه صراحة عناوينها مثل التجربة والطبيعة، الفن تجربة، التجربة والتربية و... [2].

حيث كان تأكيد ديوي على البحث التجريبي من مقتضى أن التجريبية خاصة في مشكلات العلوم الطبيعية والحلول اللازمة لها من شأنها في نطاق واسع أن توسع حقل تجاربنا وأن تطور الممارسة الديمقراطية والتربوية من خلال نبذ الأفكار المتعالية قاطبة والإلتفات حصرا نحو التجربة " داخل الخبرة الانسانية الفعالة"[3].

من الناحية العلمية ومتطلباتها التجريبية نجد جون ديوي يؤكد على الرأي العلمي التجريبي والذي يرى فيه أمال وأهداف ومتطلبات البراغماتية حيث يقول " إذا ما

(1) المرجع نفسه، ص:44

(2) طرابشي جورج، معجم الفلاسفة، ص: 313.

(3) المرجع نفسه، ص: 114.

طبق بصورة عامة، فسيحررنا من العبء الثقيل الذي فرضته علينا العقائد والمقاييس الخارجية ..." و" ...عندما تكون الوسائل جديدة في أصلها، كجدّة العلم التجريبي ..."[1].

ويستدعي ديوي الطرح العلمي لاستبعاد العلل الغائية فيقول " فان زالت عقبة الغايات الثابتة [...] أثمرت الملاحظة وتحرر الخيال ونشط الاشراف التجريبي الذي يمارس في سبيل الأغراض العملية والعلمية نشطا كبيرا" [2].

فديوي بهذا يدعم العلم كما يدعم الميكانيكا ويبين دور هذه الأخيرة في مهاجمة الطبيعة وفقا لقرارات تجريبية فيقول " لقد أضحت الطبيعة كلها مسألة دفع وجذب"

حيث يرى أن السيطرة على الطبيعة لا تكون إلا بالقوانين التي سخرت لفائدة البشر والأدوات والآلات ما هي إلا وسائل يستفاد منها وبالتالي وجب اعتبار الطبيعة آلية ميكانيكية ومن ثم استبعاد اللاهوت والميتافيزيقا [3].

حيث يرى ديوي أن التطبيق أو العمل في مساره التجريبي يضفي إلى نتائج محققة ولذلك كانت النتائج العملية عنده تحمل منفعة فهو براغماتي يتتبع النتيجة التي تكون التجريبية الموصل لها، ولذلك نجده يقول وهو يستشهد بإحدى عبارات الانجيل المأثورة " من ثمارهم تعرفونهم" لتصبح بذلك النتائج العملية هي محك قياس قديمة الافكار النظرية عن طريق التجريب كما رأينا ذلك مع هيوم وبنتام من قبل[4].

ومن الناحية العلمية العملية يجب الاشارة إلى أن البراغماتية في عمقها تتقاطع مع العلم التجريبي سواء كمبرر للوجود أو كنتاج لطروحات هذه الفلسفة التي تعتمد بالأساس على الواقع، ونظرية المعرفة للبراغماتية أساسها عملي من خلال السلوك

(1) ديوي جون، الفردية قديما وحديثا، تر: خيري حماد، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ،بيروت، نيويورك، د(ط)، 1979، ص: 143،145.

(2) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ص: 146.

(3) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ص:148.

(4) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص: 69.

ومدار إهتمامها هو القيام بعمل معين، وهذا هو نفس اهتمام المسار التجريبي لنظرية المعرفة ولو بصور متفاوتة ومتناقضة نوعا ما[1].

ويتضح الأثر العلمي من خلال توجهات البراغماتيين أنفسهم، فعلى سبيل المثال اتجه بيرس نحو الرياضيات كعلم صارم يتمظهر بوصفه معيارا للنفس أما وليم جيمس فقد أبان عن اهتمام شديد بالطب وعلم النفس وقد كان تكوينه في أساسه علميا تجريبيا وكذا ديوي في نفس الاتجاه ونزعته الطبيعانية التجريبية [2].

فبحسب جون ديوي فان التجريبية تعد ركنا أساسيا في انتاج الذكاء الانساني لأنها حررتنا من العودة إلى الماضي ومكنتنا من تعرف على طبيعة الأفكار وتعريفها في سياقها الاجرائي المعتمد أساسا على نتائج العمليات التجريبية، وهكذا يصبح العلم في مداه التجريبي موجه أساسا إلى الفعل ويهدف نظريا إلى تحقيق منفعة الانسان من خلال فوائده الجمة في تطوير الاقتصاد أو الحياة أن صح التعبير [3].

وبهذا يمكن القول بأن مرجعية هذا الحضور المبرر للطرح للبراغماتي تعود إلى العلم التجريبي والتجريبية الانجليزية والتجريبية عامة ولو بصورها النظرية.

كما دعى ديوي إلى التجريب في ميدان التربية وكان مقتنعا بمدى إيجابية ذلك في العلمية التربوية كما رأينا من خلال تجسيده للمدرسة المعملية فهو يقول " ولقد كانت طريقة التجريب في التربية مثارا لكثير من الخلاف والمحاجه بين المربين"[4].

والتجريب إنما هو إصلاح ذو معنى دقيق يطلقه ديوي على طريقة التفكير والعمل التي تنتج في العلوم الحديثة .

---

(1) نجيب زكي محمود، نظرية المعرفة، مكتبة الانجلومصرية، القاهرة، د(ط)، د(ت)، ص:30.

(2) الشنيطي محمد فتحي، وليم جيمس، دار الحمامي للطباعة والنشر،مصر، د (ط)، 1957، ص:35.

(3) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ص:149.

(4) ديوي جون، التربية في العصر الحديث، ج1، تر: عبد العزيز عبد المجيد ومحمد حسين المخزني مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د(ط)، 1949، ص:14.

حيث تكشف طريقة التجريب العملي عن كيفية التفاعل بين التراث الاجتماعي ومواهب الافراد المختلفة وقدراتهم على الابتكار والابداع الذي يعود بالنفع والتقدم إلى الفرد والمجتمع معا ولذلك كانت التجريبية ظاهرة في طرح ديوي التربوي لما رآه فيها من أسس ومقومات تضمن للمنظومة التربوية النجاح الأحسن والسبيل الأنسب لذلك النجاح فعليا وعمليا[1].

والتجريبيين على العموم لم يكن مصدر نموهم مدرجات الطلاب أو قاعات الدرس بقدر ما كان من ضروريات الحياة الملحة ومتطلباتها والصراع اليومي المتقلب في سبيل العيش، بل كان معظمهم من أصحاب المهن العملية والتفكير العملي البناء الموجه للتجديد والابداع بغرض تغيير الأوضاع آنذاك [2].

و بالتالي شكلت التجربة اليومية عندهم شكل من أشكال البراغماتية لتكون مرجعية لجون ديوي خاصة من خلال فكرة الخبرة التي تعد تبريرا للتجريبية في تداعياتها الإيجابية، كما أن المسعى العام للبراغماتية يبقى يتقاطع أفقيا وعموديا مع المسعى التجريبي خاصة من ناحية التجديد وإعادة البناء، لكن هل يمكن اعتبار ديوي بالرغم من كل تلك المرجعيات التي ذكرت تجريبيا بالمعنى المعروف للتجريبية (التقليدية)؟

(1) المصدر نفسه، ص:14.

(2) متس رودلف، المرجع نفسه، ص:42.

III- ديوي وفكره التنويري الجديد:

إن طبيعة المناخ الأمريكي جعلت من مفهوم التجريبية، يختلف ليكون بذلك أكثر واقعية وفاعلية وفقا لميكانيزمات عملية تؤمن بنجاح الفكرة وحقيقتها لتكون بهذا خبرة براغماتية أداتية وهذا ما هدف إليه جون ديوي، الذي لم يكن قط كطفيليات تعيش على ثروة سابقة وتستهلكها بل أسس لفلسفة ديناميكية ساعية لتدبير شؤون حاضرها بهدف إضافة أرباح لرأسمالها ومن ثم الإستثمار الصحيح لهاته الأموال مستقبلا.

فالتجريبية أو البراغماتية عند جون ديوي لطالما اختلفت عن التجريبيات التقليدية سواء عند الإنجليز في صورتها الأكاديمية أو غيرهم، بالرغم من بعض نقاط التقاطع بينها فهي - التجريبية الديوية- تجديدية من خلال " تجديد في الفلسفة "، عملية علمية والأكثر من ذلك كونها حكيمة وأصلية الأمر الذي يطرح تساؤلات عدة منها : ما الجدّة في فلسفة جون ديوي التجريبية؟ وما مدى مصداقية أصالتها وحكمتها؟ وفيما تظهر أفاق هذه الأصالة؟

أولا : الخبرة بمفهومها الحيوي:

لقد أصبحت التجربة أو الخبرة في أمريكا عامة وعند جون ديوي خاصة مقترنة بالفعل أو بتأدية سلوك معين، و قيمته تقاس بنجاح الخطوات التي يتخذها الإنسان في تأدية السلوك في دنيا الواقع، فالخير هنا ضرب من الفعل إنها ليست التجربة المخبرية التي تجرى في المختبر ولا التجربة المعقولة كما كانت عند كانط ولا الحسية كما كانت

عند الإنجليز، ومن هنا هي تجربة تقوم أولا وأخيرا على الفعل وعلى النشاط العملي الذي يترجم الفكرة ويعبر تعبيرا واقعيا عن نجاحها او فشلها[1].

فكانت التجريبية في الحقل البراغماتي أكثر اتساعا فهي لا تترجم الإدراكات والإنطباعات الحسية بل تجعل من هاته الأخيرة مجرد مثيرات ومنبهات وانواع التحدي للقيام بالبحث أو بتحقيق ينتهيان بالمعرفة وليست هي الشرط الأساسي في هاته المعرفة لتصبح دائرة الخبرة عند ديوي ليست الإحساسات فقط بل تضم مجموعة من العلاقات الإجتماعية بين الإنسان والأشياء ومجموعة اخرى من العلاقات الإجتماعية بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض الأخر وهكذا فكل هذه الروابط تنشأ داخل التجربة أو الخبرة وليست من صنع العقل[2].

والتجريبية عند ديوي – أي الخبرة - لا تقدم نفس التصور التقليدي للتجربة بل تقدم كبديل له تصورا ديناميا، أصبحت فيه المعرفة أو الحقيقة مرتبطة ارتباطا وظيفيا بالفعل، وأصبحت الحقيقة متصلة بنشاط الإنسان وتتوقف على ما يستطيع أن يحققه من منفعة من ورائه وفقا لتحقيق التوافق مع البيئة والمحيط لتصبح بذلك الفكرة مع ديوي هي الذريعة والوسيلة لهذا التوافق[3].

فالخبرة عند جون ديوي لا تعني التقبل السلبي، بل أكثر من ذلك فهي ضرب من التجريب أو البحث الإيجابي، وهذه هي الدينامية في فلسفة ديوي، حيث كان العالم والكون حقيقة متغيرة دائبة الصيرورة وبالتالي لا تكون هناك تجربة واحدة بل تجارب متعددة، والعالم في نظر ديوي دائب النمو وليست عملية "إعادة البناء" سوى الحقيقة الأولى لا الكون المرن، المتطور وبالتالي فتجريبية جون ديوي أصيلة، كما كانت تجريبية وليم جيمس من قبل تقدم لنا عالما خاضعا للتقدم والتطور والنموالمستمرين[4].

(1) هويدي يحي، المرجع نفسه، ص: 133.

(2) هويدي يحي، المرجع نفسه، ص: 136.

(3) موريس تشارلز، المرجع نفسه، ص:119.

(4) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ص: 160.

إن النزعة التطورية لجون ديوي تضاف إلى أوراقه الرابحة من خلال مشواره الفلسفي، فهو ينظر بعين المستقبل، وهذا في حد ذاته إنجاز يختلف به ديوي وتجريبته البراغماتيه عن سابقه.

فلسفة جون ديوي فلسفة تفاؤلية، ليس من قبيل التفاؤل الإستسلامي أو التفاؤل الايقاني(على طريقة أولئك الذين يقولون أن الزمن كفيل بإصلاح كل شيء)، بل هو تفاؤل فعال يقوم على الإيمان بأنه لازال هنالك شيء يمكن فعله فالتفاؤل- نظرة تطورية مستقبلية- عند جون ديوي دعوة للعمل وثقه في قدرة الإنسان على رؤية الواقع كما هو،و مواجهة الشر في عقر داره[1].

إن الجدّة عند جون ديوي تكمن في بنائه وطرحه الجديد من خلال فلسفة الخبرة التي تعد تميزا لفكره التجريبي، لتصبح الخبرة بذلك هي الحياة بأوسع معانيها أي من خلال التجربة المعاشة وعلاقة الفرد ببيئته لتلازم الخبرة الحياة أكثر فأكثر فتصبح حية أو كما يحياها الكائن الحي فعلياً [2].

و عليه فإن الخبرة في نظر ديوي مسألة فعل وعمل قبل أن تكون مسألة معرفة وهنا يظهر التجديد الذي لطالما دعى إليه ديوي من خلال خبرة تعتمد على السلوك وتتعقب نتائج العمل في ظل التوافق القائم بين الفرد ومحيطه في محاولة للتكيف[3].

إن جون ديوي بحكمته قدم مفهوم جديد للخبرة باعتبار أنها إجراء وفعل ينبع أساسا من معاناة الإنسان من خلال جملة نشاطاته وفقا لثلاثية الفعل والمعاناة والانفعال هذا هو الطابع العلمي والإجرائي لمفهوم الخبرة والذي يظهر الجدة من خلال تجريبية جون ديوي ومن قبله البراغماتيين.

فالخبرة في معناها الحيوي وذلك بمفهوم جديد، تختلف عن تلك الأفكار التقليدية خاصة مع الحسين في مسألة المعرفة والإحساس، لتأخذ المعرفة بذلك صفة الثانوية

(1) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص: 71.

(2) جديدي محمد، فلسفة الخبرة" جون ديوي نموذجا"، ص: 62.

(3) المرجع نفسه، ص: 62.

والفرعية، ليكون الإحساس منبها ومحفزا للنشاط والعمل كما ذكرنا سابقا وهذا ما ذهب إليه ديوي في قوله" إن الخبرة في أساسها فاعلة منفعلة معا وليست إدراكية وبالتالي تصبح الإحساسات كمنافذ للمعرفة وليست هي الأساس لها"[1].

إن الخبرة كما ذكرنا عند ديوي هي الحياة أو أن هذه الأخيرة هي الخبرة ولذلك نجده يلقب"بفيلسوف الخبرة"، من خلال التفاعل بين الفرد وبيئته الاجتماعية فيكشف من هذا التفاعل العادات والتقاليد وأساليب التفكير المثلى والمثل العليا والمطامح، عندئذ يصبح الفرد حاملا لهذه الأساليب والمعايير فينقلها من الحياة الراهنة إلى الحياة المقبلة، فيسير المجتمع نحو الاستمرارية والتجديد[2].

هذا هو التجديد في محاولة لإعادة البناء الذي تميز به ديوي من خلال الأخذ بالراهن لصناعة المستقبل وهو يقول الراهن من خلال الخبرة فيصبح الكل أداة من خلال المنهج الأداتي عنده.

فديوى اراد ان يقدم فلسفة جديدة، تكون بمثابة حملة على تلك الفلسفات التي لم توف بالغرض على حد تعبير ديوي وبهذا جاءت عملية التجديد أو إعادة البناء كحاجة لابد من القيام بها داخل رزنامة العمل الفلسفي الهادف.

من هنا بدأ عمل ديوي التجديدي القائم بالاساس على ضحد كل ما هو تقليدي ومزعوم فكانت ثنائية الفصل أو ذلك الصراع القائم بين الفلسفات التقليدية من بين أهم الامور التجديدية في فلسفة ديوي، فهو يرى أن عيب الفلسفات القديمة يكمن في ذلك الفصل بين التفكير والخبرة الإنسانية، حيث أنها وضعت التفكير خارج التجربة فانتزعت عنه الطابع الحي(الحياة) وأسمته بصور مختلفة مثل التصور، الحكم الإستدلال، وغيرها، و بالتالي عزلت الكائن الحي الذي يعيش في الزمان[3].

(1) المرجع نفسه،ص:63.

(2) الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه، ص:43.

(3) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ص: 167.

فالإنسان بالنسبة لديوى باحث بطبعه، تواجهه في الحياة مشاكل والأداة التي تساعده في هذا البحث هي التفكير حيث ينتقل من خبرة إلى اخرى .

هكذا تقدم الفلسفة الأداتية من أجل إظهار العقل كأداة أو التفكير بمعنى أصح بحيث لا يكون(العقل) ملكة منفصلة عن التجربة أوقدرة متعالية تقتادنا إلى عالم أسمي يضم سائر الحقائق الكلية، و إنما العقل باطن في الطبيعة مثله في ذلك مثل أي شيء آخر له وجوده ودلالته في صميم التجربة وبالتالي يكون ديوي قد نقد التجريبية وأتى بالبديل من خلال منهجه الأداتي الجديد وكل تداعياته الإنسانية[1].

فديوي أراد الوصول إلى حقيقة جوهرية مفادها أن الافكار والتصورات والنظريات ليست سوى وسائل او ادوات تنحصر قيمتها بل كل وظيفتها لما لها من قدرة على قيادتنا نحو المستقبل من خلال النتائج المثمرة على ضوء الخبرة بعيدا عن كل التفريقات فهو مشجع ومرحب بكل تجربة جديدة مراد بها تنظيم الهيئة الإجتماعية[2].

أما بخصوص تلك التفريقات المزعومة نجد ديوي يقول " أولئك الذين يحولون هذه التفرقة إلى تفرقة مطلقة تجعل كل ضروب الخبرة على تضاد مع العقل وما نصفه بانه عقلي، إنما يعتمدون في ذلك التحويل على تصور سابق عندهم تصوروه جزافا عن الخبرة وحدودها ما" يجب" أن تكون ولا يزال هذا التحديد الجزاف- لسوء الحظ- قائما في تفسيرات كثيرة لما هناك من تمايز بين ما يقع في مجرى الزمن وما هو أزلي- مثلا- وبين الإدراك الحسي والإدراك العقلي وبصفة عامة بين المادة والصورة"[3].

لذلك إن الذات والموضوع متصلين عند ديوي وأن الانفصال بين الفكر والموضوع ليس له وجود واقعي إذ انه من الخطا عزل الامور خارج الخبرة، وأن تجعلها موضوعات للمعرفة، فالأداتية تتخذ من الاشياء وسائل للمعرفة لا موضوعات لها

(1) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص: 63.

(2) أ.وولف ، فلسفة المحدثين والمعاصرين، ج5، تر: أبو العمر عفيفي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ط(2)،د (ت)، ص:109.

(3) جديدي محمد، فلسفة الخبرة" جون ديوي نموذجا"، ص: 56.

وهي تتفق مع كل فلسفة تؤمن بالتغير لا بالثبات ولعل هذا يمثل حجرالزاوية في فلسفة جون ديوي[1].

إن عمل التجريبية - في نظر ديوي- كما بدأه" لوك" وقبله بيكن بكل غاياته إلا أنه يرمي إلى الهدم ذلك أنها(التجريبية الإنجليزية) ظلت متمسكة بتلك التفرقة المزعومة. فكان جل إهتمام الفلسفة الحديثة منصب حول تبيان الأسس والمصادر التجريبية للافكار بقصد مناهضة الافكار والمعاني العقلية[2].

هكذا تكون التجريبية إبتعدت عن المعنى الحقيقي للخبرة كما ورد عند جون ديوي في كونه عمل موجه ومحكوم بالماضي، في حين كان ديوي يهدف إلى الاستشراف والتوجه نحو الإنسانية بروح إجتماعية، ضف إلى ذلك أن التجريبية لم تعمم الخبرة وإنما أقصرتها على القضايا المعرفية النظرية فقط وهنا يظهر التميز البراغاتي.

لتكون بذلك فكرة الذكاء كمفهوم جديد يحل محل المفهوم القديم(العقل) من بين أهم تجليات العمل الديوي المفارقة لتلك التجريبيات القديمة أو الفلسفات ككل، فلم يكف ذلك مجرد استبدال لفظي أي لفظة عقل بلفظة ذكاء وكفى، لكنه تغيير أعمق من هذا حيث يكون الذكاء بمثابة منهج يعمل وفقه الكائن الإنساني ويتفاعل مع الطبيعة وبالتالي تسهيل عملية التكيف، فالعقل الذي يريده ديوي هو نوع من التوجه البصيرintellijent الذي يحث بكل الشروط ويفعّلها[3].

ومن ثم نقل هذه المهمة الجديدة أو المفهوم الجديد للعقل إلى مجال العلوم الإنسانية ليواكب سير العلوم التجريبية، و في مضمار هذا يقول ديوي".. ليس التجديد المنشود الذي ندعو إليه مجرد تطبيق" الذكاء" من حيث هو أداة جاهزة، و لكن تجديد يقتضينا أن ننقل إلى البحث في شؤون الإنسانية والأخلاقية الطريقة التي أوصلتنا إلى

(1) الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه، ص:101.

(2) ديوي جون، إعادة البناء في الفلسفة، ص: 181.

(3) جديدي محمد، فلسفة الخبرة" جون ديوي نموذجا"، ص: 81.

فهم الطبيعة الفيزيقية على النحو الذي نفهمها به الآن أي طريقة الملاحظة واختبار النظرية بالإختبار التجريبي"[1].

إن التصور الجديد الذي جاء به ديوي للتخفيف من ذلك الصراع المتصور منذ القدم بين الخبرة والعقل، جعل من التعاون بينهما علاقة مطلوبة، فهو كان دائم الاعتقاد ان الفلسفة تقوم وتنشأ من المشكلات الحياة الإجتماعية وصعوبة مواجهتها مثل الثنائيات التي أفرزها تاريخ الفكر الفلسفي، فالفلسفة عنده تسعى لإمتلاك الحكمة التي تؤثر في تسيير الحياة ذاتها والفيلسوف وحده يمتلك مفاتيح هذه الفلسفة ويكفيها مع واقعه المعاش بغرض إعادة البناء[2].

لقد عمل ديوي نفس عمل بيكن من قبل الذي وضع أسس المنهج التجريبي وفقا لأرجانونه الجديد الذي سارت عليه العلوم فتقدمت هذا التقدم الذي نشهد أثره في الطبيعة والكمياء وعلم الحياة، فديوي وضع الاداة التي توضح من خلالها أسس المنهج التجريبي الذي ينبغي ان يطبق على العلوم الاجتماعية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية وهنا تكمن الجدة والحكمة والاصالة من خلال التجاوز[3].

من منطلق أن الهدف من الفلسفة عنده إرتبط بالاتجاه الفعلى نحو حل مشكلات الإنسان، خصوصا اثناء إستخلاص الضرر الذي تؤديه بعض أنماط التقاليد الإجتماعية باعتبارها عائقا امام التكيف والتطور، هنا يتحدد الدور المصيري للفلسفة في تجلياتها العديدة بإيجاد الطرائق المنافسة لإحدات فعل التغير الحضاري بحجه ان هدف الفلسفة في نظر ديوي أمر أكبر من الحيازة على المعرفة[4].

و هذا ما أبانه جون ديوي في مسألة التجديد في الفلسفة حيث أكد على دور الخبرة في الارشاد، لتكون المرشد للعلم وللحياة الأخلاقية وإلى تبيان طريقة ذلك وهو

(1) ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ص: 14.

(2) ديوي جون، إعادة البناء في الفلسفة، ص: 09.

(3) الأهواني أحمد فؤاد، المرجع نفسه، ص:101.

(4) المرجع نفسه، ص:189.

الذي لم تفعله التجريبية، التي أغفلت عن الدور المتميز للخبرة الذي يشمل كل المجالات بما فيها المجال الحي أي الإنساني.

هذه هي المهمة التي انتظرها ديوي من الفلسفة من خلال تجديد هاته الأخيرة بعيدا عن الدوغمائيات والتوجهات، و هذا هو ما أراده بالضبط من خلال الخبرة بمفهومها الحيوي، الذي سيظهر أكثر من خلال منهجه الأداتي وأهم تداعياته على المباحث الإجتماعية والتي من أهمها التربية والديمقراطية .

ذلك أن الأساس الجوهري لفلسفة ديوي يرتكزعلى الطرح الواقعي في القضايا بغية تغيير الفرد والمجتمع داخل إطار البيئة، بدعوته إلى الفعل أو إلى التفكير في القضايا التي يمكن إعتبارها خططا وتصميمات تتجه نحو الفعل[1].

و من بين الإنتقادات التي قدمها جون ديوي إلى التجريبيين أنهم بالرغم من إعتمادهم على الحس والخبرة لم يتفطنوا إلى كفيه ربط هذا الاعتماد بالخبرة وتطبيقاتها على نطاقات اخرى خارج المعرفة، و بذلك فسحوا المجال أمام الأفكار العقلية وثبتوها كمقياس بدلا من إعتماد نتائج الخبرات، ومن ثم سايروا ما كان متصورا عن العقل، كعقل مطلق وثابت والحقيقة أنه غير ذلك تماما[2].

فالعقل هو استعداد ناتج وليس شيئا معدا من قبل يمكن أن نثيره ونحركه عند اللزوم، والإنسان ينمي ذكاؤه تنمية بارعة فيوسع من حياته ولا يضيق منها بالدوافع القوية، فكان العقل جهاز فسيلوجي يتأثر بمحيطه أيما تاثر ويؤثر فيه كذلك والإنسان العاقل إنسان مستنطق للواقع ملامس للحواس من خلال الاحداث الجديدة وعلاقتها بالخبرة المباشرة" فالعقل ليس قوة سابقة تؤدي وظيفة الترياق، و لكنه إنجاز شاق للعادة يحتاج إلى عناية مستمرة به"[3].

و يمكن إختصار أهم الإنتقادات التي قدمها ديوي للتجريبية في:

(1) الصايغ نوال الصراف، المرجع في الفكر الفلسفي، دار الفكر الغربي، القاهرة، ط(1)، 1983، ص:261.
(2) جديدي محمد، فلسفة الخبرة" جون ديوي نموذجا"، ص: 73.
(3) ديوي جون، الديمقراطية والتربية، تر: متى عفراوي وزكريا ميخائيل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، د(ط)، 1964، ص:351.

1- الدعوة إلى البحث في نظرية المعرفة وشروطها بدل البحث في ما هو أهم ألا وهو النتائج أي المعرفة الواقعة والممكنة.

2- التجريبية في المناهج العلمية تقر الظروف الإقتصادية المحسوسة التي يعيش الناس في ظلها ولكنها لا تخدم الأغراض الأخلاقية والإنسانية التي تخدم بدورها القيم الحاضرة .

3- هي فلسفات أرادت التجديد لكن سرعان ما أغفلت عن مطلبها لتسقط في دوامة الثنائيات المزعومة، ضف إلى ذلك سقوطها في الميتافزيقا (التجريبية الإنجليزية).

4 -العلم لازال في طفولته والمنهج العلمي لم يصل إلى النضج ولم يبلغ المنهج كماله بعد.
5 -ترجمة الإحساسات والإدراكات كشروط أساسية للمعرفة في مقابل تحاشي الدور الحيوي للخبرة.

شكلت التجريبية مرجعية هامة في فكر جون ديوي، كما كانت منطلقا ورافد من روافد الفكر الفلسفي عنده،لكن الأهم من ذلك أنها لم تبلغ مبلغها الكامل كمرجعية مؤسسة للفكر البراغماتي، الأمر الذي جعل مرجعيات أخرى تلقى الصدارة والترحيب كمنطلقات مسايرة وموائمة للطرح البراغماتي في شقه الأداتي مع ديوي وهنا تظهر التطورية كأهم مرجع للفكر الديوي .

إن جون ديوي كفيلسوف طموح، مؤمن بالتقدم والنمو لم يقتصر في تأثره المعرفي على التجريبية فقط، بل كانت له تقاطعات فكرية أخرى، شاءت الصدفة أن تجعل منها حقيقة موثقة في الإطار الكرنولوجي الفلسفي وذلك بالعودة إلى سنة ميلاد جون ديوي 1859م وهي نفس سنة صدور كتاب أصل الأنواع لداروين[1].

(1) الأهواني أحمد فؤاد، جون ديوي"سلسلة صلة نوابغ الفكر الغربي"، ص:21.

إن الداروينية – كطرح أساسي للتطورية – عدت حلقة مفصلية لنشوء البراغماتية كفكرة، حيث أن جيرارد دلودال كمفكر أمريكي يذهب إلى تأريخ نشأة الفلسفة الأمريكية بكتاب أصل الأنواع لداروين [1].

دارووين أمد ديوي بعنصر التحريض أي ذلك النفس الذي يعطي للأفكار قابليتها للصيرورة أوالإحتفاء داخل نقاش تتقاطع فيه مختلف المعارف بغية تدعيم نظرية أوضحدها،والتي تقر أن تطور الأنواع بما فيه النوع الإنساني رهيب بالصراع داخل الأنواع والمؤدي لإنتخاب الأنواع التي تحوز على ملكات إجابية بتكيفها مع البيئة(الفكرة النابعة عند البراغماتية)[2].

إستفادت البراغماتية من داروين وتفسيراته في التحريض من ناحية المسار أكثر من البنية وبالتالي أصبح التفكير عند الإنسان مثل الصراع عند الحيوان وسيلة طبيعية للمقاومة المؤسسة على الصراع من أجل البقاء، أي البقاء للأنجع والأصح وبهذا تكون التطورية دافعا مهما لتبلور الأطروحات العلمية والعملية في العالم، فبحسب جون فإن كثيرا من الإشكالات العلمية وجدت حلولها من أصل الأنواع[3].

خاصة وأن جون ديوي دعى بفكرة التطور وضرورة البقاء للفكرة الصحيحة في مقابل السليبة (الأفكار التقليدية)، فداروين هو الذي حدد المنطق الجديد الذي أنتج هذه الأثار التطورية في العلوم الطبيعية لتطبق على الذهن والأخلاق والحياة، هذا ما دفع ديوي إلى توضيحه من خلال مقال بعنوان "أثر داروين على الفلسفة" وهذا ماأخذه سبيلا في نقده للفلسفة التقليدية خاصة السياسية، فينقد فكرة الأنواع الثابتة خاصة في تطبيقاتها مع طبيعة الإنسان [4].

(1) Deledalle Gérard ,la philosophie Américaine ,éditions l'age d'homme , Lausanne ,s(é) ,Suisse ,1983. P251.
(2) Ibid,P.255.
(3) Ibid, P.255.

(4) كروسي جوزيف وشتراوس، المرجع نفسه، ص:541.

ليقدم ديوي في مقابل تلك الرؤية الرتيبة والمملة للممارسة الفلسفية – الفلسفة التقليدية – الوعد الناصع والمشرق لفهم تطوري لإمكانيات الإنسانية من خلال تقديم إمكانات لا حدود لها للتطور ومن منظور تطوري يصبح التغيير ذو دلالة لإمكانات جديدة وينتهي إلى التحقق أي أنه يصبح متكهنا بمستقبل، وذلك في إرتباط الفرد بالمحيط (الخبرة) والتوجه قدما بدلا من الإنحدار في تبعية للموروث العقيم [1].

كما يبرهن ديوي أن القبول العام للمنظور التطوري أعاقه عيب آخر من عيوب الفلسفة التقليدية، ذلك في تسليمها بالترتيب الطبقي المتصلب لغايات ثابتة ولذلك دعت الحاجة للبديل مع مفهوم النمو، الذي يزود ديوي بمعيار الخير الكلي بمنطقه الفهم التطوري للفرد والمجتمع وتدعياته على جميع النواحي العقلية والأخلاقية والإجتماعية أو الإنسانية بالمعنى الأصح [2].

كما تأثر ديوي كذلك في سياق جملة التقاطعات الفكرية بهيجل لكن مع تحفظ شديد بدأ يظهر فيما بعد من خلال عدول ديوي عن تلك الهيجلية بما فيها من مقومات للميثالية، ولعل تأثره كان من خلال التاريخانية والإستمرارية وتحويل السؤال الكانطي الصياغة ماهي الشروط اللاتاريخية والمتعالية للإمكانية إلى سؤال كيف يمكننا تحويل الحاضر إلى مستقبل أكثرثراء[3].

إضافة إلى تأثره بالمذهب التطوري عند هربرت سبنسر (1820-1930) Herbert Spencer الذي كان أول من طبق فكرة التطور تطبيقا شاملا بالمعنى الصحيح من خلال تغيير لنظرية داروين إلى الإنتقاء الطبيعي، و الإهتمام بعلم الحياة من خلال كتابه " مبادئ علم الحياة "، و كذا تأثر ديوي في هذا الصدد بالتطور الخلاق عند برجسون وفلسفة الحياة والقوة بما فيها من فاعلية متطرفة عند نيتش[4].

---

(1) كروسي جوزيف وشتراوس، المرجع نفسه، ص: 542.

(2) المرجع نفسه، ص: 542.

(3) جديدي محمد، ما بعد الفلسفة "مطارحات رورتية"، ص:162.

(4) متس رودلف، الفلسفة الإنجليزية في مائة عام، ج2، تر: فؤاد زكريا وزكي نجيب محمود، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط(1)، 2009، ص:14.

و قد عبر ديوي عن التطور الصحيح في صناعته للجديد والتنوع وذلك بصياغته في لغة تلائم الفضاء الإنساني بكل متطلباته وأبعاده، من خلال الأداتية.

ثانيا: المنهج الأداتي بين التجديد والبناء .

لقد عمل ديوي من خلال منهجه الأداتي على جعل الفلسفة أكثرواقعية من خلال وظيفتها الجديدة والمتمثلة في التطهير، فهو بهذا يكون قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض مثلما فعل سقراط من قبل، لتصبح بذلك فلسفة ريادية من صميم الخبرة المعاشة بعيدا عن تلك الدوغمائيات والثنائيات والتوجهات الفارغة، وبالتالي آن الأوان لفلسفة جديدة بمهمة جديدة وبناء جديد.

ولما كانت فلسفة جون ديوي فلسفة متشعبة إنطلاقا من عمله الموسوعي إرتأينا التركيز على أهم مباحثها الإجتماعية من خلال عمله التجديدي في التربية والديمقراطية وبالتالي: فيما تتجلى أفاق المنهج الأداتي من خلال (مبحثي التربية والديمقراطية) كنماذج للبحث الإجتماعي؟ .

1- التربية:

إن شهرة جون ديوي كتربوي تفوق شهرته كفيلسوف، فهو ليس مربيا أو أستاذا في التربية فحسب، بل هو فيلسوف المربيين وشيخ فلاسفة التربية الحديثة فقد استطاع أن يظهر إفلاس التربية القديمة بالبرهنة على عدم صلاحها للجيل الحاضر المتميز بمشاكل جديدة لم يصادفها الأباء والأجداد، فكان كتاب المدرسة والمجتمع أصدق دليل على نوايا ديوي، وآماله في تربية جديدة بكل مافيها من ربط وتواصل وتفاعل بين المدرسة والمجتمع [1].

فديوي أدرك حقيقة هامة لما بين الفلسفة والتربية حيث جعل الفلسفة نظرية للتربية، أوبعبارة أخرى الفلسفة هي الإطار النظري للتربية وعلى هذا فالتربية والفلسفة شيئ واحد، حيث أن الفلسفة هي التربية والتربية هي الفلسفة نفس الشيئ الذي كان مع

(1) ديوي جون، المدرسة والمجتمع، ص:09.

سقراط، إلا أن ديوي أراد أن يجعل من التربية الجانب الديناميكي الفعال للفلسفة (الجانب العملي)، فالفلسفة تقرر النظريات والتربية تحقق تطبيقاتها [1].

والأمر الأهم من ذلك التجديد هو تلك الأفاق البراغماتية التي لطالما دعى بها ديوي من خلال مشروعه التربوي، لاسيما وأن الفلسفة ترتبط في اتجاهها العام بالحياة كما أن البرغماتية كذلك فلسفة في الحياة من خلال مافيها من تجديد وتغيير وهذا مادفع بديوي بإقحام التربية في الحياة أو في الخبرة [2].

فديوي من خلال تطبيقاته في مجال الإصلاح التربوي أراد أن يؤكد على أن المدرسة وجدت من أجل الطفل وليس العكس وذلك بإعطائها طابع إجتماعي تجريبي وبهذا فهو يؤكد التركيز على الطفل بإعتباره محور العملية التربوية وليس على المدرسة في قوله:" في الوقت الحاضر نرى التغيير المقبل في تربيتنا هو تحول مركز الجاذبية فهو تغيير أو ثورة ليست غريبة عن تلك التي أحدثها "كوبرنيكس "عندما تحول المركز الفلكي من الأرض إلى الشمس ففي هذه الحالة يصبح الطفل الشمس التي تدور حولها تطبيقات التربية وهو المركز الذي ننظمها حوله" [3].

وبهذا يكون ديوي قد وضع منظومة تربوية جديدة وليست الجدة فيها ضرب من التصورالنظري بل دعوة إلى العمل والتطبيق والتجريب بغية خلق تكافؤ وتكامل بين الفرد ومجتمعه .

ظل ديوي يسعى في ظل الإتجاه الإجتماعي الواسع حيث يقحم التربية في جميع مشاكل المجتمع وبذلك يكون قد وضع يده على الحقيقة المفقودة، حيث رأى أن المدرسة مجتمع مصغر على غرار المجتمع ككل، فهو يعتبر أن التربية هي الحياة والحياة هي التربية، والحياة تعني المجتمع وفي هذا الصدد يقول "التربية هي الحياة وليست إعداد الحياة مستقبلية، وأعتقد أن المدرسة يجب أن تكون ممثلة للحياة

(1)ديلودال جيرار، المرجع نفسه، ص:288.

(2) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ج1، ص:60.

(3) ديوي جون، المدرسة والمجتمع، ص:54.

الإجتماعية، الحياة الواقعية الضرورية التي يحياها الطفل في المنزل وفي البيئة المحيطة به وفي اللعب مع زملائه"[1].

وقد ركز ديوي في مشروعه التربوي الجديد على الجانب العملي والتجريبي من خلال محاولة ربط التعليم بالسلوك، وهذا ما ظهر من خلال الشراكة الثلاثية بين المدرسة والمجتمع والطفل داخل المشروع، من خلال كتابه "المدرسة والمجتمع " الذي تجلت فيه الخبرة وذلك من منطلق التعاون القائم بين البيت والمدرسة على التربية والتوجيه والتوفيق بين أعمال الطفل الإجتماعية وأعماله المدرسية،ووجوبية الإحتكام لرابطة المدرسة والأعمال الانتاجية في البيئة وهنا نجد ديوي يصرح مرة أخرى بالبعد التجريبي في نسقه الفلسفي[2].

ويظهر الجانب التجريبي،والذي هو في حد ذاته طرح تجديدي في مشروع التربية عند جون ديوي بشكل كبير من خلال كتابه مدارس المستقبل حيث نجده يلح على عملية تعليمية يمتزج فيها التعليم والتطبيقات الإجتماعية والأفكار والأراء مع التجربة والعمل وإدراك التلاميذ معنى ما يعملون إمتزاجا كاملا منذ البداية[3].

إذ كان جون ديوي يجري تجارب على بعض المدارس الخاصة والعامة في محاولة لربط المدرسة بالمجتمع فيعطينا ميثال عند مدير لمدرسة عامة في "انديانابوليس" فيقول "هو رجل يدعو للإعجاب" في كونه يقدم تجربة تختلف عن أي تجربة وذلك بتحويل مصنعه إلى مدرسة حقيقية يعمل فيها جميع الأطفال باختلاف أجناسهم[4].

قد جاء عمل ديوي من جملة انتقاداته للتربيات التقليدية خاصة وفلسفاتها عامة ذلك بالتخلي عن تلك التربية التي كانت تعتمد على الكتب وحفظها إلى التربية عن

(1) جديدي محمد، فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجا "، ص:247.

(2) ديوي جون، المدرسة والمجتمع، ص:10.

(3) ديوي جون وإيفلين ديوي،مدارس المستقبل، تر:عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة،د(ط)،1962م، ص:246.

(4) المرجع نفسه، ص:246.

طريق المشاركة الفعالة بين الطلبة في إطار عملي حتى لا يحس الطفل في تعلمه بالعزلة وهاته من أهم الإسهامات الفاعلة في الميدان التربوي عند جون ديوي[1].

إن عمل ديوي كما لاحظنا كان في مساره العام مناهض لكل ماهو تقليدي عقيم وبالتالي نجده يقول وهو يحدد تلك الخاصية العملية في بنائه التربوي "لا يتسنى للمدرسة أن تعد طلبة للحياة الإجتماعية إلاّ متى كان النظام فيها يمثل الحياة الإجتماعية[...] والطريقة الوحيدة التي تعد الطالب للحياة الإجتماعية هي الإشتغال بأعمال إجتماعية وإن قلنا أن الطالب يستطيع أن يكون عادات اجتماعية بغير الإشتغال بأعمال إجتماعية فإن مثلنا يكون كمثل من يعلم الطفل العوم والسباحة بإتيان حركات فوق اليابسة بعيدة من نهر أو بحيرة أوبحر"[2].

إن التربية كما قدمها ديوي تعد أصدق تجسيد للآداتية بكل معانيها، فهي إعداد وتوجيه وتجديد يضع الفرد منذ طفولته داخل مجتمعه وذلك بتفعيل سلوكاته وإبراز خبراته، وهكذا ديوي صنع الفرق وأحدث التميز الذي مكنه من الظهور كواحد من أهم فلاسفة التربية على الإطلاق .

ويمكن تلخيص أهم أفكار ديوي التربوية فيما يلي :

1 – التربية عملية إجتماعية، يكون الطالب فيها إجتماعي من خلال المشاركة في أعمال وقيم مجتمعه فيتعلم السلوكات التي هي مميزات للشخصية الإنسانية .

2 – جعل التربية في قلب الخبرة دون أن تكون تراث ماضي أو إعداد للمستقبل.

3- إقحام الرابطة بين المدرسة والبيت والمجتمع داخل العملية التربوية .

4 – الطابع العملي للتربية وذلك في إرتباطها بالعمل والجانب المهني وبمبدأ الفعالية .

(1) ديوي جون، المدرسة والمجتمع، ص:11.

(2) المرجع نفسه، ص:11.

كما تعد التربية تلازما للديمقراطية والسؤال هنا مامدى مساس التربية عند جون ديوي بالفضاء الديمقراطي؟، وماتجليات هذا الفضاء من خلال المنهج الأداتي والتوجه البراغماتي ؟.

2– الديمقراطية :

يعرف جون ديوي الديمقراطية على أنها"حكومة الشعب للشعب وبالشعب"[1].
لكن ديوي لايحصر هذا المفهوم في نطاقه السياسي فقط بل يتعد به إلى الجانب الإجتماعي والأخلاقي وفي هذا الصدد يقول" ليست الديمقراطية مجرد شكل للحكومة وإنما هي في أساسها أسلوب من الحياة المجتمعية والخبرة المشتركة المتبادلة "[2].

وهذا ما أدرجه من خلال مؤلفات عديدة أهمها الديمقراطية والتربية وفيه يؤكد ديوي على الحرية ولاسيما الحرية الفكرية، لذلك ربط الديمقراطية بالتربية حيث ينشأ الطفل منذ الصغر على حب الديمقراطية والحرية وبالتالي انعكاس ذلك على نفسه من خلال مشواره التعليمي فيكون سلوكه من ديمقراطية إشربّت منها نفسه ونزلت منها منزلة الطبع[3].

كما كانت الديمقراطية عند ديوي من متطلبات الحياة شأنها شان التربية بحيث اعتبر"أن الحياة الحديثة تتطلب الديمقراطية"[4].

وبهذا كانت الديمقراطية عنده مرادفة للتربية من الوجهة العملية في كونها دلالة على الحياة ومن هنا صدرإيمانه بالديمقراطية الذي لايقل عن إيمانه بالتربية لاسيما وأنه

(1) ديوي جون، مدارس المستقبل، ص:334.

(2) جديدي محمد، فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجا "، ص:255 .

(3)Dewy john ,Démecatie et éducation,Présentation de gérard Deledall,les presses de imprimerie Delmas à Artigues pres ,bordeaux ,s(é) ,1983 , P109.

(4) ديوي جون، التربية في العصر الحديث، ج 1، ص:74.

اعتبر التربية كما ذكرنا آنفا ملازما للديمقراطية من خلال أن هاته الأخيرة تجسيد للبعد التربوي الهادف[1].

فالديمقراطية هي الحل المناسب والتوافق الأنسب لبنائه الفلسفي في كونها تساعد الفرد على التطور والنمو،وهذا باشتراك كل فرد على قدر واسع في تقرير سياسة جماعته ومصيرها

إن ديوي لا يثق بالدولة ويفضل نظاما متعددا يقوم فيه المجتمع وفقا لجمعيات تطوعية إختبارية ويرى أن في تعدد المنظمات والأحزاب والشركات والنقابات وغيرها توفيقا بين الفردية والعمل العام المشترك[2].

ومن ثم لاتكون الديمقراطية السياسية راسخة إلا من حيث أنها تقوم على أسس يكفلها بناء ديمقراطي في الفلسفة، وفي كل جوانب الحياة، هذا راجع إلى إيمان ديوي بقدرة الناس في كل مكان على أن يحققوا النمو الملازم للديمقراطية ولايمكن الإستغناء عنه.

ولأنه متفائل باستمرار نجده لايسمح لنكبات القرن العشرين أن تحطم توقعاته الدموية لمستقبل البشرية فهو دائم التأكيد على تلك الملازمة بين البناء الجديد والنمو في ظل الديمقراطية حيث يقول "ويمكن للجمهور أن يشكل أغراضه ويوضحها بصورة أكثر حسما وبهذا المعنى يكون علاج أمراض الديمقراطية هو المزيد من الديمقراطية"[3].

الأمر الذي جعل ديوي يثق بالديمقراطية ويجعل منها مهمة منتظرة، بعد أن صار بمثابة الخبير،فالتجارب التي خبرها في مضمار السياسة والثقافة جعلته يوثق تلك الثقة من خلال مقالة ألقاها سنة 1939م بعنوان"الديمقراطية المهمة التي تنتظرنا".

(1) جديدي محمد، فلسفة الخبرة" جون ديوي نموذجا "،ص:258.

(2) ديورانت وول، قصة الفلسفة، ص:630.

(3) كروسي جوزيف وشتراوس، تاريخ الفلسفة السياسية "من جون لوك الى هيدغر"،ج 2، ص:541.

وهكذا يضع ديوي الأسس لديمقراطية إجتماعية أكثر منها سياسية من خلال ربطها بالتربية والقيم الأخلاقية والحياة الإنسانية الأمرالذي جعل منه رافدا من روافد الفكر الأمريكي الجديد – البرغماتية الجديدة -*[1] .

ولما كانت الفلسفة حريصة على الإرتباط بالواقع والإحتكام إليه وإلى نتائجه كمعيارلصحة وحقيقة الأفكار،كانت الديمقراطية بذلك نموذج للحياة الإجتماعية والأخلاقية المشتركة أكثر من كونها نظاما سياسيا كما هو شائع، و في مضمار هذا نجد ديوي يقول" ليست الديمقراطية مجرد شكل للحكومة وإنماهي في أساسها أسلوب من الحياة المجتمعية والخبرة المشتركة المتبادلة "[2].

ولعل هذه هي المهمة التي كان يقصدها.

فكان ديوي شديد الإلحاح على فكرة الحرية وذلك بتحرير العقل وجعله فعالا منتجا مستقلا يؤدي وظيفته الإجتماعية وليس مجرد عقل خادم ولعل هذا ما أكده من خلال مفهومه للذكاء في إطار حرية كاملة داخل حيز العمل والإختبار والتجريب بعيدا عن الملاحظات والتصورات الجوفاء وذلك في ظل مجتمع متفاعل ومتفائل وهذا هو بعينه المجتمع الديمقراطي من منظور ديوي[3].

من خلال المشروع التجديدي عند ديوي وتماشيا مع مبدئه الديمقراطي يقول " للحكومة، وللعمل وللفن وسائر النظم الإجتماعية معنى، أعني لها غرض هذا الغرض هو أن تطلق قدرات الأفراد وترقيتها دون تحيز لجنس،أولطبقة أو وضع إقتصادي[...]إن للديمقراطية معان عدة لكن إذا كان لها معنى أخلاقي فذلك هو أسمى محك أو إختبار لكل

* New Pragmatisme وهي إمتداد للبراغماتية الكلاسيكية ولكن بلون جديد، من أشهر دعاتها ريتشارد رورتيه Richard Rorty (2007-1931).

(1) جديدي محمد، ما بعد الفلسفة " مطارحات رورتية "، ص:164.

(2) ديوي جون، الديمقراطية والتربية، ص:90.

(3) Deledalle Gérard ,la philosophie Amiricaine , p. 177.

المؤسسات السياسية والمنظمات الصناعية ، سيكون مدى ماتقدمه لنمو كل عضو من أعضاء الجماعة نمواعاماوشاملا"[1].

الأمر الذي يؤكد تلك النزعة العملية عند جون ديوي، وتوظيفها داخل فضاء حر بعيدا عن كل الضغوطات وهذا ماأبانه من خلال مشروعه التربوي من خلال تنمية قدرات الطفل على التفكير الحر والعمل في حل المشكلات التي تواجهه ومقومات الطريقة التجريبية، ولو أن المدارس أخذت بهذه الطريقة، تكون قد ساهمت في مهمة بناء مجتمع مفتوح ديمقراطي تقدمي[2].

كما ينقل ديوي الديمقراطية إلى مجال الأخلاق على إعتبار أن الديمقراطية تمنح فرصة النمو الكامل لكل فرد من أفراد المجتمع، والذي تعمل التربية على تحقيقه ميدانيا، ليكون النمو الأخلاقي لذلك غاية لكل عمل وهو المطلب الأسمى الذي ديوي يحمل على كاهنه مهمة الإصلاح والتجديد والبناء وبالتالي التنوير[3].

لذلك دعى ديوي إلى التسامح والتعاون كقيم أخلاقية فاعلة في مشروعه الديمقراطي والتربوي التنويري، ذلك أن التعاون والتكامل الإجتماعي يفتح أفاق البحث والتجديد فالأشخاص غير المتعاونين يهددون حلم ديوي ولذلك دعى هذا الأخير إلى الإجتهاد عند الأطفال بدل المنافسة- فيه نقد للفلسفات القديمة – وأن يعملوا ويدرسوا بصورة متعاونة ويكتسبوا عادات التعبير عن الذات التي تعدهم للحياة في ديمقراطية أكثر كمالا[4].

خاصة وأنه فيلسوف أراد من خلال فلسفته أن يفطن المرء على المجرى الصحيح للعمل وأن يهتدي إلى الخير الحقيقي والقيمة الأحق التي لابد له من إلتماسها وفقا لآليات الخبرة وبالتالي كانت نظرته للأخلاق نظرة واقعية على عكس التجريبية فهو

(1) كروسي جوزيف،وشتراوس، المرجع نفسه، ص:542،543.

(2) جديدي محمد، فلسفة الخبرة"جون ديوي نموذجا"، ص:258.

(3) ديوي جون، مدارس المستقبل، ص:14.

(4) ديوي جون، المبادئ الأخلاقية في التربية، تر:عبد الفتاح السيد هلال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة د(ط)،1966، ص:54.

يرى أنه ليس للغايات أو الخيرات الأخلاقية من وجود اللهم إلا حين يكون ثمة شيء لابد من عمله وبالتالي تصبح الحياة الأخلاقية صورة من صور البحث[1].

إن ديوي ومن خلال نظرته العامة في التربية والديمقراطية يجعل من الأخلاق بدورها ظاهرة إجتماعية تعود إلى التربية ولهذا نجده يقول "إذا كانت موازين الأخلاق منحطة فذلك راجع (ناشئ) من نقص التربيةالتي يتلقاها الفرد في تفاعله مع بيئته الإجتماعية"، كما رفض ديوي بهذا مذهب اللذة حيث رأى أن المعيار الأخلاقي لايمكن النظر إليه على ضوء المشاعر التي تصاحب اللذة واهتم في مقابل ذلك بالدوافع الشخصية والذات التي تعمل في تكامل من أجل تحقيق سلوك إنساني صحيح [2].

وبهذا يظهر جون ديوي كفيلسوف مجدد وحكيم أعاد البناء وأطر للمشهد الثقافي في أمريكا فكان بذلك موسوعي في طرحه فلسفة الخبرة ونظر إليها في مجالات واسعة (لتربية، الفن، السياسة، الأخلاق، المنطق، المعرفة)، ليكون بذلك نسقا فلسفيا متميزا "عقيدتي الفلسفية " شرح فيه علاقة الفلسفة بالحضارة ومهمة الفلسفة الجديدة "التطهيرية" ومنهجه الجديد (الأداتية) فجعل من كل شيئ أداة لخدمة الفرد داخل مجتمعه وهذا ما جعل منه هو في حد ذاته مرجعية لا يستهان بها داخل العمل الفلسفي سواء في أمريكا أوخارج أمريكا.

لكن هذا لم يعصم ديوي وكغيره من نخبة الفلاسفة الناجحين من النقد، لاسيما وأنه هو في حد ذاته نقد البراغماتية ويمكن أن نلخص بعض الإنتقادات التي وجهت إلى جون ديوي فيمايلي:

إن ديوي في مهاجمته للمدارس التقليدية وإعتمادها على التلقين قد تخلى عن الدور الإيجابي لهذا النظام الذي كان هو نفسه ثمرة له، كما أن هناك تجني من ديوي عندما ذكر أن المدرسة التقليدية تقوم على العنف والقهر بينما تقوم طريقته هوعلى الديمقراطية، إن هذه التفرقة في حد ذاتها تفرقة مجحفة فكل نظام له عيوبه سواء كان

(1) ابراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة،ص:83.

(2) ديوي جون ، المبادئ الأخلاقية في التربية، ص:22.

ديمقراطي أو ديكتاتوري، كما أن مبدأ الإستمرار الذي يقوم على العادة قد يكون سلميا، أما فرض التفسير البيولوجي على العادة فهو تفسير تعسفي من جانب ديوي ودروجماطيقيا يتنافى أساسا مع الفكر الفلسفي الحر[1].

إن القول بأن الخبرة ثمرة المعاناة داخل الفرد، وأن الخبرة ذاتية فلا يجوز نقلها إلى الأخرين - بحكم ذاتيتها – مما يجعل كل فرد جزيرة منعزلة وهذا يتنافى مع التواصل والموضوعية والإستمرار الذي دعا إليه ديوي، كما أن محاولته وضع دين موضوعي للبشرية معناه أنه لم يعجبه أي دين ولم يكلف حتى نفسه بدراسة الأديان لأنه رأى أن نفيها سقوط في الميتافزيقا الأمر الذي جعله يضع تفرقة بين الدين والتدين في حين أنهما واحد داخل عقائد الشريعة السماوية والمؤمن بها صار متدينا والمؤمنون كثيرون والدين واحد ولا سبيل للحديث عن أديان كثيرة بعدد البشر كما أراد ديوي[2].

كما أن جون ديوي في طرحه للديمقراطية حصرها في البيئة الأمريكية بالرغم من محاولاته الإنسانية فيها، لكن السؤال: هل يمكن أن يكون جون ديوي ديمقراطيا بالمعنى السياسي؟ وإلى أي مدى يمكن لتلك الديمقراطية التعبيرعن متطلبات الفرد خارج أمريكا بكل موضوعية خاصة وأن الديمقراطية تبقى التسمية الرنانة لشيء لا وجود له؟.

(1) ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص:164،163.

(2) المرجع نفسه، ص: 166.

خاتمة

إن جذور البراغماتية تمتد إلى العديد من الفلسفات الأوربية و البريطانية و قد أبانت التجريبية عن تلك الجذور خاصة وأن كل تجريبية تحول بشكل ما إلى براغماتية أو فاعلية لاسيما و أن الإنسان كان منذ تواجده فوق الأرض تجريبيا بشكل ما و براغماتيا عمليا بشكل ما كذلك الأمر الذي جعل من التجريبية كأهم رافد و مؤثر في الفكر البراغماتي بشهادة البراغماتيين أنفسهم.

فالتجريبية هي تراث مشترك في الفلسفة الانجلوسكسونية عامة و البراغماتية خاصة، و التجريبية بحق أحد أهم متطلبات المنهج البراغماتي خاصة وإن تعلق الأمر بالأداتية و مختلف ميكنزمات الطرح البراغماتي

وبهذا يكون جون ديوي على غرار الفلاسفة البراغماتيين قد تأثر بل واستجاب معه بذلك المنهج الأداتي لمرجعيات تجريبية تفرض نفسها بشكل أو بآخر ضمن النمط البراغماتي التجديدي الواقعي، لتتسم فلسفة جون ديوي بالنزعة التجريبانية – الطبيعانية التجريبية-.

فجون ديوي لطالما استخدم المصطلح التجريبي داخل نسقه الفلسفي لتصبح الخبرة – أحد أهم مقومات نسقه - ضربا من التجريب أو البحث الإيجابي كيف لا وهو المعادي للميتافزيقيا لدرجة نعته لها بالصيغ المريضة في مقابل التجريب والواقعية ولعل هذا من أهم نقاط التقاطع بين تجريبية جون ديوي وسابقاتها من التجريبيات التقليدية.

وتعد تجريبية فرنسيس بيكن من بين أهم المرجعيات لجون ديوي، وذلك من خلال مؤلفه الأرغانون الجديد و كل ما فيه من طرح للتجديد من خلال التوجه نحو الطبيعة و العمل على تسخيرها لخدمة البشر(المنفعة)، و الخروج من شرنقة الذات و التوجه أكثر فأكثر موضوعيا.

كما أسهمت الفلسفة الإنجليزية و من قبلها بعض الفلسفات التجريبية – بصورة بسيطة- في بلورة التوجه التجريبي البراغماتي عند جون ديوي، و ذلك من خلال دورها الريادي في محاولة لتأطير المشهد الثقافي التجريبي في إنجلترا خاصة و جملة الشعارات التي لطالما كانت مطلبا من مطالب الفكر البراغماتي كالواقعية و الليبرالية والتسامح و

العملية و الإجرائية و المنهج العلمي و كل ما يصب داخل الحيز التجريبي البراغماتي التجديدي.

خاصة و أن التجريبية تصر على منطق الخبرة و الإحتكام للواقع و صنع الأسلوب المتحرر الذي يحتل أكبر عد ممكن من مجالات التجربة، فالخبرة تعد من أهم مبررات التجريبية عند جون ديوي و أهم تداعياتها الإيجابية، كما أن المسعى العام للبراغماتية يبقى يتقاطع أفقيا و عموديا و مسعى التجريبية.

وبهذا يكون جون ديوي قد استنطق التجريبية في جوانب ما ليخرسها في جوانب أخرى فتجريبيته كانت أكثر حكمة و ديناميكية، تجريبية جعلت المعرفة مرتبطة ارتباطا وظيفيا بالفعل لتصبح الحقيقة متصلة بنشاط الإنسان (التحقيق) متوقفة على ما يحققه من منفعة من ورائه وفقا لتحقيق أهم يكمن في التكامل والتوازن بين الفرد ومحيطه.

ديوي أراد أن يضع الفرد بكل خبراته و تجاربه داخل مجتمعه، خاصة وأن البراغماتية أنزلت الفلسفة إلى الأرض و إلى الحياة وأعادتها إلى مسارها الصحيح وهذه الجدة بعينها و التميز مع ديوي يكون من خلال الخبرة و دورها الحيوي لتصبح هي الحياة بأوسع معانيها من خلال تشديده على العنصر الاجتماعي للفرد و هذا ما أغفلت عنه سائر التجريبيات.

تجريبية جون ديوي لا تصنع الفصل، بل تقيم جسور الاتصال بين القيم الذاتية والموضوعية، ذلك بتطبيق المناهج العلمية على الأمور الإنسانية من خلال إيمانه بالخبرة لا بسلطة فوقها أو ورائها ليصبح العقل أداة للبناء بدلا من أن كان يلخص الحالات العامة حابسا معه التجريبية داخل حيز الثنائيات المزعومة، فهي تجريبية حكيمة لا معملية تجرب في المخبر و لا تجربة معقولة كما كانت عند كانط و لا حسية كما هو الحال عند الانجليز، بل تجريبية تقوم أولا و أخيرا على الفعل والنشاط ضمن علاقات اجتماعية بين الأفراد والأشياء و هذا هو أساس التجربة عند ديوي.

أساس مؤمن بالاستمرارية والفاعلية والتطور من خلال النظر إلى المعرفة لا على أنها غاية في حد ذاتها و لكنها معرفة موجهة لأغراض سلوكية، فالفكرعند ديوي مختبر و الأفكار أدوات ووسائل للنشاط و هذا كله دون إفراط و تفريط لخدمة الفرد أولا

وأخيرا، ولعل النزعة التطورية عند ديوي كانت من خلال مرجعيات أخرى (تأثره بداروين) و الاستمرارية (هيغل).

والأداتية عند جون ديوي تجعل كل ما هو معطى أداة بما في ذلك الأفكار لتجعل منها وسائل لا موضوعات فهي تتفق مع كل فلسفة تؤمن بالتغييرلا بالثبات وهذا هو سر تأثره بالتجريبية.

فأصبحت مع ديوي وظيفة الفلسفة تطهيرية، تطهر الفلسفة من كل الثنائيات المثيرة للبلبلة في مقابل ذلك الدعوة إلى التوجه نحو مشكلات الساعة و الوقت الحاضر و هذا ما جعل ديوي يصنع الفرق و الجدة ليضع بذلك فلسفته في مرتبة الحكمة و معها نفسه في مرتبة الفيلسوف المعاصر الحكيم الأكثر اجتماعية وإنسانية.

و لعل محور النقاش في فلسفة ديوي يتعدى كل الأصول و المرجعيات ليخرج إلى منحى التداعيات و الآفاق، بمهمة تظاهرية تصنع فلسفة المستقبل الموضحة لآراء الناس و كفاحهم الاجتماعي و السياسي و الأخلاقي في الوقت الذي يعيشونه، بكل إنسانية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا و أكثر واقعية من خلال التوفيق بين العوامل المتصارعة في الحياة و أكثر براغماتية في تحقيق أسمى مطالب الأفراد (السعادة).

و المذهب البراغماتي عموما ينطوي على تقارب وثيق في تركيبه و مضمونه وعلى اشتراك في الغاية، فكان هدف المذهب البراغماتي هو الانفتاح على جميع الأفكار و تحويرها بحيث يجمع بينها و بين مركب روحي اعلى، فالبراغماتية أو المذهب البراغماتي مركب أصيل بين القديم والحديث، لكن تبقى الواقعية والحياة تفرض نفسها دائما أمام البراغماتيين فهم من شكلوا فلسفة أمريكية فريدة تخضع للنسبية.

وفي الأخير تبقى الإرادة و العمل و التصميم أهم نقاط الجدة في أي فكر، فما أحوجنا إلى مثل هاته الفلسفات العملية الواقعية الناجعة، المجربة و الإجرائية في واقعنا العربي عامة و الإسلامي خاصة دون أن ننسى كل ما لنا من خصوصيات و مميزات و تحفظات، فيكفينا فخرا أن ديننا الحنيف جاء جامعا لكل آليات الجدة و التقدم و إعادة البناء و التجديد الذي لطالما نحن في غفلة عنه اليوم.

قائمة المصادر و المراجع

أولا: المصادر

أ ـ باللغة العربية:

1 -ديوي جون و إيفلين ديوي، مدارس المستقبل، ترجمة: عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د(ط)، 1962.

2 -ديوي جون: التربية في العصر الحديث، الجزء الأول، ترجمة: عبد العزيز عبد المجيد و محمد حسين المغربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د(ط)، 1949.

3 -ديوي جون، إعادة البناء في الفلسفة، ترجمة: أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة، ط(1)، 2010.

4 -ديوي جون، الديمقراطية و التربية، ترجمة: متى عفراوي و زكريا ميخائيل مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، د(ط)، 1964.

5 -ديوي جون، الفردية قديما و حديثا، ترجمة: خيري حماد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر، بيروت، نيويورك د(ط)، 1979.

6 -ديوي جون، المبادئ الأخلاقية في التربية، ترجمة: عبد الفتاح السيد هلال، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، القاهرة، د(ط)، 1966.

7 -ديوي جون، المدرسة و المجتمع، ترجمة: أحمد حسن الرحيم، دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، بيروت، ط(2)، 1975.

8 -ديوي جون، تجديد في الفلسفة، ترجمة: أمين مرسي قنديل، مكتبة الأنجلومصرية مصر، د(ط)، 1957.

ب-باللغة الأجنبية:

1- Dewey John ,Démocratie et éducation ,présentation de Gérard Deledalle ,les presses de imprimerie Delmas a Artigues près,Bordeaux s(é) ,1983.

ثانيا: المراجع

أ -باللغة العربية:

1 -أ،وولف، فلسفة المحدثين والمعاصرين، الجزء الخامس، ترجمة: أبوالعمر عفيفي، لجنة التأليف والنشر، مصر، ط (2)، د (ت) .

2 -إبراهيم زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، الجزء الأول،مكتبة مصر القاهرة، د (ط)، 1982 .

3 -إبراهيم عبد الله، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، المغرب،ط (1) 1997 .

4 -إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، مصر، ط(1)، 2001.

5 -إبراهيم مصطفى إبراهيم، في فلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر مصر، ط(1)،2000.

6 -إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ط(1)، 2000.

7 -إسلام عزمي، نوابغ الفكر الغربي " جون لوك"، دار المعارف مصر، د(ط) 1964.

8 -أفلاطون، الجمهورية، ترجمة: أميرة حلمي مطر، مهرجان القراء، مكتبة الأسرة، القاهرة، د (ط)، د (ت) .

9 -ألشنيطي محمد فتحي، وليم جيمس، دارالحمامي للطباعة والنشر،مصر،د(ط) 1957 .

10 -ألصايغ نوال الصراف، المرجع في الفكر الفلسفي،دار الفكر العربي، القاهرة ط(1)، 1983.

11 -ألنشار مصطفى، فلاسفة أيقظوا العالم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط (3)، 1988 .

12 -ألنشار مصطفى، نظرية المعرفة عند أرسطو، دار المعارف، مصر، ط (1) 1985 .

13 -أمين احمد، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة الكتب المصرية، مصر، ط(2) 1935.
14 -الأهواني أحمد فؤاد، ديوي جون "سلسلة نوابغ الفكر الغربي"، دار المعارف مصر، ط(2)، 1968.
15 -بتركاز، تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، ترجمة: حسني نصار مكتبة الأنجلومصرية، مصر، د(ط)، 1987.
16 -بتركازمان و آخرون، الأطلس، ترجمة: جورج كتورة، شركة الطبع والنشر اللبنانيين، بيروت، د(ط)، 2001.
17 -برهيبة إيميل، تاريخ الفلسفة (الفلسفة الحديثة)، ترجمة: جورج طرابشي دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط(1)، 1987.
18 -بشة عبد القادر، الابستمولوجيا "فلسفة الفيزياء النيوتونية "، دار الطليعة بيروت، ط(1)، 1990.
19 -بغورة زواوي، مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، مطبعة دار الهدى، الجزائر د(ط)، د(ت) .
20 -بيطار محمد عبد الرحمن،تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط(3)، 1980.
21 -تشارلزموريس، رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة: إبراهيم مصطفى إبراهيم مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، د(ط)، 1996.
22 -جديدي محمد، فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجا"، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، ط(1)، 2004.
23 -جديدي محمد، ما بعد الفلسفة مطارحات رورتية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف، بيروت، د(ط)، د(ت).
24 -جونو و برجوان، تاريخ الفلسفة و العلم في أوربا الوسيطية، ترجمة: علي زيعور وعلي مقلد، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، مصر، د(ط) 1993.

25 -ديلودال جيرار، الفلسفة الأمريكية، ترجمة: جورج كتورة و إلهام الشعراني المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط(1)، 2009.
26 -ديورانت وول، قصة الفلسفة، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المفكرون، بيروت، د(ط)، د(ت).
27 -راسل برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، الجزء الثالث، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، مصر، د(ط)، 1977.
28 -راسل برتراند، حكمة الغرب، الجزء الأول، ترجمة: فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، الكويت 1983، العدد: 72.
29 -راسل برتراند، حكمة الغرب، الجزء الثاني، ترجمة: فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، 1983 العدد: 72.
30 -زوخي إسماعيل، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر للنشر و التوزيع القاهرة، ط(1)، 2001.
31 -زيدان محمود فهمي، الإستقراء و المنهج العلمي، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، مصر، ط(1)، 2002.
32 -سالم محمود عزيز نظمي، تاريخ الفلسفة، مؤسسة الشباب الجامعية، مصر د(ط)، د(ت).
33 -السايح ابراهيم و ممدوح دريس مصطفى، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية و اليونانية (تاريخ اليونان)، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية مصر د(ط)، 1999.
34 -ستس وولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، د(ط)، 1984.
35 -شاخت رتشارد، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، مكتبة الأسرة، مصر، د(ط)، د(ت).

36 -شوفاليه جان جاك، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: محمد عرب ماصيلا مؤسسة الجامعة للدراسات و النشر، بيروت، ط(4)، د(ت).
37 -عبد المعطي فاروق، الأعلام من الفلسفة "جون لوك "، دارالكتب العلمية بيروت، ط(1)، 1993.
38 -عبد المعطي محمد علي، الفلسفة العامة، دارالمعرفة الجامعية، مصر، د(ط) 2001.
39 -عبد المنعم راوية عباس، جون لوك إمام الفلسفة التجريبية، دارالنهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، د(ط)، 1996.
40 -غنيمة عبد الفتاح، فلسفة العلوم، دار الفنون الجميلة، مصر د(ط)، 1993.
41 -ف .ديكاون كوفالين، الحضارات القديمة، الجزء الثاني، ترجمة: نسيم واكيم البازجي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط(1)، 2000.
42 -فضل الله مهدي، بدايات التفلسف الإنساني "الفلسفة ظهرت في الشرق " دار الطليعة، بيروت، ط(1)، 1994.
43 -فضل الله مهدي، ديكارت ومنهجه، دار الطليعة، بيروت، ط(3)، 1996.
44 -كامل فؤاد، إعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دارالجيل، بيروت،ط(1)،1992.
45 -كانط إيمانويل، مشروع للسلام الدائم، ترجمة: عثمان أمين، مكتبة الأسرة القاهرة، د(ط)، 2000.
46 - كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصرالوسيط، دارالقلم، ط(1) د(ت).
47 -كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر، ط(5) 1986.
48 -كرم يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، د(ط)، د(ت).
49 -كروسي جوزيف وليوشتراوس، تاريخ الفلسفة السياسية "من جون لوك إلى هيدجر "، الجزء الثاني، ترجمة: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ط(1)، 2005.

50 -كريسون أندريه، تيارات الفكر الفلسفي "من القرون الوسطى حتى العصر الحديث "، ترجمة: نهاد رضا، منشورات بحر المتوسط و منشورات عويدات باريس، بيروت، ط(2)، 1992.
51 -لوك جون، الحكومة المدنية، ترجمة:محمود شوقي الكيال، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، مصر، د(ط)، د(ت).
52 -لوك جون، رسالة في التسامح، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دارالغرب الإسلامي، بيروت، د(ط)، 1985.
53 -متس رودلف، الفلسفة الإنجليزية في مئة عام، الجزء الأول، ترجمة: فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط(1)، 2009.
54 -متس رودلف، الفلسفة الإنجليزية في مئة عام، الجزء الثاني، ترجمة: فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط(1)، 2009.
55 -محمد علي ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم "الميتودولوجيا"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د(ط)، د(ت).
56 -محمود زكي نجيب، سلسلة نوابغ الفكر الغربي "دافيد هيوم"، دار المعارف القاهرة، د(ط)، 1955.
57 -ملاح أحمد، المختصر في تاريخ الفلسفة الغربية "من طاليس إلى باشلار" رياض العلوم للنشر و التوزيع، الجزائر، ط(1)، 2006.
58 -نجيب زكي محمود، دافيد هيوم، دار المعارف، مصر، ط(1)، 1958.
59 -نجيب زكي محمود، نظرية المعرفة، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، د(ط) د(ت).
60 - هويدي يحي، دراسات في الفلسفة الحديثة و المعاصرة، دار النهضة العربية، القاهرة، د(ط)، د(ت).
61 - هويدي يحي، قصة الفلسفة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، د(ط) 1993.

ب -باللغة الأجنبية:

1- Bleau L.Joseph ,Men and Movements in Américan Philosophy Prentice Hall Philosophy Ceries USA , n(p) ,1966.

2- Deledalle Gérard ,la philosophie Américaine ,éditions l'age d'homme , Lausanne ,s(é) ,Suisse ,1983.

3- Dumas jean- Louis, Histoire de la pensèe, Renaissance et siècle le lumières dèpot legal, london ,5(é) , 1993.

4- Hutin Serge, la philosophie Anglaise et Américaine, presses universitaires de France 108 Boulevarde saint- Germain, paris, s(é) 1963.

5- James William ,Pragmatism ,Dover Philosophical Classics , New york ,1(p) ,1995.

6- louis Andre lercay ,locke , presses universitaires de France 108, Boulevard saint- Germain, paris ,s(é), 1964.

7- Russel Bertrand, History of western philosophy , vnwim uneversity Books, UK ;8(é) 1962.

ثالثا: المعاجم و الموسوعات

المعاجم

أ- باللغة العربية:

1- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، تحرير:عبد الله الكبير وآخرون دار المعارف، مصر، د(ط)، 1981.

2- بن الحاج يحي و آخرون، القاموس المدرسي، دار تلانتيقية للنشر و التوزيع الجزائر، د(ط)، د(ت).
3- سلوم توفيق، المعجم الفلسفي المختصر، دار القلم، موسكو، د(ط)، 1982.
4-صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، د(ط) 1994.
5- فتحي عبد الله محمد، معجم مصطلحات المنطق و فلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، مصر، ط(1)، 2003.
6- طرابشي جورج، معجم الفلسفة، دار الطليعة، بيروت، ط(2)، 1977.
7- طرابشي جورج، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، ط(1)، 1987.
8- مدكور ابراهيم المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون الطباعة و النشر القاهرة، د(ط) /1983.
9- وهيبة مراد، المعجم الفلسفي(مصطلحات الفلسفة)، دار قباء لدنيا الطباعة و النشر و التوزيع، د(ط)، 1998.

ب- باللغة الأجنبية:

1- Laland Andrée ,vocabulaire technique et critique de la philosophie P.U.F ,16(é) ,1988.

الموسوعات

1 -إمام عبد الفتاح إمام، موسوعة العلوم، الجزء الثاني، المكتبة الهيجلية مكتبة مدبولي، القاهرة، د(ط)، د(ت).
2 -بدوي عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط(1)، 1984.

3 -روزينتال بودين و آخرون، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط(4)، 1981.
4 -عباس فيصل، موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، ط(1)، 1996.
5 -لالند أندريه، موسوعة لالند الفلسفية، الجزء الثاني، ترجمة: خليل أحمد خليل منشورات عويدات، بيروت –باريس-، ط(1)، 1996.
6 -مطلب عبد اللطيف محمود، الفلسفة والفيزياء "الموسوعة الصغيرة، الجزء الثاني، دائرة الشؤون الثقافية و النشر، العراق، د(ط)، 1985.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

إهداء

كلمة شكر و عرفان

مقدمة .....أ-ه

الفصل الأول: الفلسفة التجريبية و تاريخ الفلسفة.....07

I- التجريبية و البراغماتية: المفهوم والتاريخ 08

أولا: تعريف التجريبية 08

ثانيا: تعريف البراغماتية 14

II- الأسس الفلسفية للتجريبية 19

أولا: ما قبل الفلسفة 19

ثانيا: عند اليونان 23

ثالثا: العصور الحديثة و ميلاد التجربة العلمية 30

الفصل الثاني: التجريبية الإنجليزية 42

I- التجريبية الإنجليزية الكلاسيكية 43

أولا: فرنسيس بيكن 43

ثانيا: جون لوك 49

ثالثا:جورج بركلي 55

رابعا: دافيد هيوم 57

خامسا: آدم سميث 62

II- التجريبية الإنجليزية المحدثة 65

أولا: جريمي بنتام 65

ثانيا: جون ستوارت مل.....71

القصل الثالث: تجريبية جون ديوي و دورها البراغماتي 80

I- المسار الحياتي و الفكري لجون ديوي 81
أولا: الفضاء البراغماتي قبل جون ديوي.....81
ثانيا: جون ديوي و الإنعطاف التجريبي البراغماتي 88
II- المرجعية التجريبية لجون ديوي 96
III- ديوي و فكره التنويري الجديد 111
أولا: الخبرة بمفهومها الحيوي 111
ثانيا: المنهج الأداتي بين التجديد و البناء 122
خاتمة الدراسة 133
قائمة المصادر و المراجع 137
أولا: المصادر 138
ثانيا: المراجع 139
ثالثا: المعاجم و الموسوعات 145
فهرس الموضوعات 148

ملخص المذكرة

إن الدارس لتاريخ الفلسفة يلمس بطريقة أو بأخرى تلك المرجعيات و الخلفيات خاصة و أن الفلسفة فعل تراكمي يستخيل في النهاية إلى تبني أو تجاوز أو ضحد، الأمر الذي لم يمنع من وجود روافد و تأثيرات ساهمت في نشأة البراغماتية لتشكل بذلك أصولا و مرجعيات لها، بما في ذلك التجريبية بكل ما فيها من طرح للواقعية.

و بهذا تظهر التجريبية كمرجعية للبراغماتية خاصة مع جون ديوي و منهجه الأداتي في مقابل ضحد الماورائيات و تبني آليات التجريب الديناميكي و الفعال من خلالب تأثره بالتجريبيات التقليدية خاصة الأنجلوساكسونية مثل تجريبية" فرنسيس بيكون" و " لوك" و" وليام جيمس"، لكن تجريبية " ديوي" كانت أكثر تميزا عن سابقاتها بما فيها من تجديد داخل الرزنامة الاجتماعية الفاعلة من خلال منهجه في الذكاء و الخبرة الحيوية و التربية و الديمقراطية و كل متطلبات البراغماتية الاجتماعية و الإنسانية.

المكلمات المفتاحية:

التجريبية؛ البراغماتية؛ الأداتية؛ التحقيق؛ العملي؛ المختبر؛ التربية؛ المنهج؛ الطبيعانية؛ الخبرة.